شِعْرِيَّةُ الانزِيَاحِ في تلَبْيِاتِ الجَاهِلِيْنَ

دكتور

محمد إسماعيل إبراهيم الشهاوي

مدرس الأدب والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات ببورسعيد

" تلبية العرب في الجاهلية " دراسةٌ أسلوبيةٌ

محمد إسماعيل إبراهيم الشهاوي
قسم الأدب والنقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد – جامعة الأزهر – مصر
البريد الإلكتروني : mohamedismail.2073@azhar.edu.eg

الملخص :

يتناول هذا البحث " تلبية العرب في الجاهلية " بالدراسة الأسلوبية ، والدراسة الأسلوبية في هذا البحث تعنى في المقام الأول بنصوص تلك التلبيات كهدف رئيس مع عدم إغفال المتكلم والمخاطب ، وتتمثل في دراسة مظاهر الانزياح في هذه النصوص للكشف عن المنظومة العقدية في شبه الجزيرة العربية في الحقبة الجاهلية من وجهة نظر أدبية ؛ ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التي تحاول الوقوف على أبرز صور الانزياح في التلبية في الجاهلية ، وبيان جمالياتها ودورها الدلالي والبلاغي عن طريق تحليل البنى اللغوية ؛ للكشف عن المدلولات الحقيقية لهذه البنى. وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع جدارة تلك التلبيات بالدراسة والتحليل ؛ لخصوبة روافدها ، وبكارة منابعها ، فضلا عن ثرائها اللغوي الذي يتوشح الكثير من السمات الأسلوبية البارزة محل الدراسة ، وقد كان ذلك من خلال المنهج الوصفي التحليلي الذي حاول رصد ظاهرة الانزياح في التلبيات ؛ لأن الأسلوبية كمنهج نقدي حديث تستطيع أن تكشف الحجاب عما استتر في النص الأدبي ، وما خفي وراء اللفظ العربي من خلال تسليط الضوء على ما بالنص الملفوظ من تغيير وعدول عن الأصل لغرض ملحوظ . وقد جاء هذا البحث في تمهيد ومبحثين وخاتمة ، أما التمهيد فيتناول مفهوم التلبية وأصلها وصورتها في الجاهلية ، كما يتناول تعريف الأسلوبية وبيان أنماطها ، وتعريف الانزياح وذكر أنواعه ، ويتناول المبحث الأول الانزياح الاستبدالي وما يشتمل عليه من استعارة وكناية وانزياح دلالي ، بينما يتناول المبحث الثاني الانزياح التركيبي وما يشتمل عليه من تقديم وتأخير وتكرار وانزياح في الأساليب الإنشائية ، ويختتم البحث بخاتمة أوردت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

الكلمات المفتاحية : التلبية ، الجاهلية ، أسلوبية .

Meeting the Arabs in Jahiliyyah," a stylistic study"

Muhammad Ismail Ibrahim Al-Shahawi
Department of Literature and Criticism - Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Port Said - Al-Azhar University - Egypt
E-mail: mohamedismail.2073@azhar.edu.eg

Abstract:

This research deals with " The Arab devotion *(Talbiyah)* in pre-Islamic era " with a stylistic study, and the stylistic study in this research is primarily concerned with the texts of those devotions *(Talbiyahs)* as a main goal, without neglecting the speaker and the interlocutor. It is represented in studying the manifestations of deviation in these texts to reveal the doctrine system in the Arabian Peninsula in the pre-Islamic era from a literary point of view. Hence the importance of this study, which attempts to identify the most prominent forms of deviation in the devotion *(Talbiyah)* in the pre-Islamic era, and to clarify its aesthetics and semantic and rhetorical role by analyzing the linguistic structures; to reveal the true meanings of these structures What prompted me to choose this subject was the meritocracy of those devotions *(Talbiyahs)* to study and analysis, for the fertility of its tributaries, the virginity of its sources, as well as its linguistic richness, which reveals many of the prominent stylistics features under study. This was done through the descriptive analytical approach, which tried to monitor the manifestation of deviation in the devotions *(Talbiyahs)*. Because the stylistics as a modern critical approach can reveal the veil of what is concealed in the literary text, and what is hidden behind the Arabic pronunciation by shedding light on the changes in the spoken text and deviation from the original for a noticeable purpose. This research came in an introduction, two sections and a conclusion. As for the introduction, it deals with the concept of devotion *(Talbiyah)*, its origin and its image in the pre-Islamic era and deals with the definition of stylistics and its patterns, and the definition of deviation and its types. The first section deals with substitutional deviation and what it includes of metaphor and semantic deviation. While the second section deals with the compositional deviation and what it includes in terms of introduction, delay, repetition, and deviation in the structural methods. The research concludes with a conclusion in which the most important results of the research are mentioned

Keywords: devotion (Talbiyah), ignorance (pre-Islamic era), stylistics

المقدمة

الحمد لله رَبِّ العالمين والصَّلاةُ والسَّلَامُ على أشرفِ المرسلين سيدنا محمد ، أُذن الخير التي استقبلت آخر إرسال السماء إلى الأرض ، ولسان الصدق الذي بَلَّغ مراد الحق إلى الخلق .

وبعدُ؛

فمازال العصر الجاهلي على بُعْدِه قريبًا ، وما زال – وسيظل – رافدًا من روافد العطاء ، ومصدرًا من مصادر الضياء ، ومازالت أساليب العرب في الجاهلية موسوعة سخية ، ونافذة ندية ، يجدُ فيها كُلُّ ذي رغبةٍ رغبتَهُ ، ويروي منها كُلُّ ظمآنٍ غُلَّتَهُ ، فلغةُ العربيِّ الجاهليِّ عينُ كَلِمٍ صافية ، قطوفها دانية .

وتلبيات العرب في الجاهلية تمثل دربًا من دروب الثراء الأسلوبي ، والتنوع الدلالي ، على الرغم ما فيها من جمود فكري ، وانحرافٍ عَقَديّ ، إلا أنَّ هذا المزيجَ الجديدَ كَونَّ نسيجًا فريدًا ؛ فكشف البصرُ عن البصيرةِ ، والعمى عن العَمَهِ ، وأبان اللَّفحُ اللفظيُّ عن النَّفْحِ العقليِّ .

وقد جاء هذا البحث بعنوان : " **شعرية الانزياح في تلبيات الجاهليين** " ؛ للكشف من خلال الظاهر عن مدلولات العرب في تلبيّاتها ، وما تحمله من أسرارٍ في طيَّاتها، فالشرك بالله واضح ، والكفر بآياته ناضح ، ولمَّا كانت أدبية الانزياح كاشفة عن مدلولات الكلام من خلال دَوَالِّها الظاهرة ، مستعينةً بعلوم العربية المختلفة من بلاغةٍ ودلالةٍ ونحوٍ وغيرها ؛ وقع اختياري عليها ، ومال تحليلي إليها .

وقد اخترتُ من أنماط الأسلوبية ما يرتكز على النّص ذاته ، وهو ما يطلق عليه " الانزياح " ؛ لأنه يكشفُ التغيير في التعبير ومراده ، وما أحدثه هذا التغيير ومفاده ؛ فيتمكن الباحث من معرفة خبايا النفس من خلال جماليات النص .

وكان المنهج الوصفي، التحليلي هو الغالب على طبيعة هذه الدراسة ؛ لاستخلاص أهم سمات الانزياح الأسلوبي ، وتحليلها تحليلًا فنيًا .

وبكارة الموضوع وخصوبة روافده كانا من أهم البواعث على إتمام هذه الدراسة،

فضلًا عن محاولة فهم عقلية العربي في الجاهلية من تتبع دوالّه الأسلوبية ، التي أوردها في التلبية .

وقد جاء هذا البحث في مقدمة ، وتمهيد ، ومبحثين ، وخاتمة ، وفهرس للمصادر والمراجع ، وآخر للموضوعات .

- **أما المقدمةُ** : فقد تحدثت فيها عن الافتتاحية ، وبينتُ فيها أهمية الموضوع ، وأهداف الدراسة ، ومنهج البحث وخطته .
- **وأما التمهيد** : فقد جاء في مطلبين ، جاء الأول منها تحت عنوان " تلبية العرب في الجاهلية " ، وجاء الثاني تحت عنوان " الانزياح وأنواعه " .
- **وأما المبحث الأول** : فقد جاء تحت عنوان " الانزياح الاستبدالي " ، ويشتمل على ثلاثةِ مطالبَ ، جاء الأول منها تحت عنوان " الاستعارة " ، والثاني تحت عنوان " الكناية " والثالث تحت عنوان " الانزياح المعجمي " .
- **وأما المبحث الثاني** : فقد جاء تحت عنوان " الانزياح التركيبي " ويشتمل على ثلاثةِ مطالبَ ، الأول منها تحت عنوان " التقديم والتأخير " ، والثاني تحت عنوان " التكرار " ، والثالث تحت عنوان " الانزياح في الأساليب الانشائية "
- **الخاتمة** : وتشتمل على أهم النتائج التي توصَّل إليها البحث .
- **فهرس المصادر والمراجع** .
- **فهرس الموضوعات** .

واللهَ سبحانه وتعالى أسألُ أن ينفع بهذا العمل ، وأن يهبه القبول والسداد .

تَمْهِيدٌ

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

التلبية عند العرب في الجاهلية

إن الإنسان – أيَّ إنسانٍ – يحتاج بحكم طبعه وفطرته التي فطره الله عليها إلى الإيمان ، حيث الأمان ، والإحساس بقوة غيبية عظيمة تسخر الكون لأجله ، وتحميه من نفسه وجهله ، والإنسان قلِقٌ بطبعه ، وطوق النجاة من هذا القلق والاضطراب ، والشك والارتياب ، هو الإيمان بأن هناك خالقٌ لهذا الكون ، والناسُ في طريقهم إلى الله – سبحانه وتعالى – متفرقون ، فمنهم من يصل أو يكاد ، ومنهم من يضل سبيله، ويفقد طريقه ، والإحساس بهذه القوة الغيبية يورث الرهبة ويدفع إلى الإذعان .

وكان العرب في الجاهلية إحدى قوافل الحياة ، وقد طلبوا سبل النجاة ، وهم قد أذعنوا وخضعوا وتقربوا ، وإن خانتهم عقولهم ، وأُوصدت قلوبهم ، وكانت التلبية وسيلة إعلان عن هذا الخضوع والإذعان.

والتلبية باعتبارها شعارًا وإشعارًا تدور حول معنى التلبس بالطاعة والمداومة عليها ، فعندما يقول القائل : لبيك " أي لزومًا لطاعتك ، أو أنا مقيم على طاعتك "[1] ، وهي أيضًا تأتي بمعنى الإجابة ، ومعناها إجابتي لك يارب [2] ، وهي

---

(١) لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، ٧٣٢/١ ، دار صادر – بيروت ، ط١ ، وانظر : مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، ٢٤٦/١ ، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م ، طبعة جديدة ، تحقيق : محمود خاطر ، الأفعال ، أبو القاسم علي بن جعفر السعدي ، ١٤١/٣ ، عالم الكتب – بيروت ، ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م ، ط١ ، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم ، محمد بن أبي نصر بن حميد الأسدي الحميدي ، (ت : ٤٨٨هـ) ، ٥٥٥/١ ، مكتبة السنة – القاهرة – مصر ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥ م ، ط١ ، تحقيق : د . زبيدة محمد سعيد عبد العزيز

(٢) انظر : كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت : ١٧٥هـ) ، ٣٤١/٨ ، دار ومكتبة الهلال ، تحقيق : د. مهدي المخزومي / د. إبراهيم السامرائي ، غريب الحديث ، القاسم بن سلام الهراوي (ت :٢٢٤ هـ) ، ١٥/٣، دار الكتاب العربي – بيروت ، ١٣٩٦هـ ، ط١ ، تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان .

مأخوذة من قولهم ألبَّ فلان بالمكان ودارُ فلان تلب داري أي : تحاذيها ، أي أنا مواجهك بما تحبُّ إجابةً لك ، والياء فيها للتثنية ، وهي منصوبة على المصدرية ، وقال سيبويه : انتصب لبيك على الفعل ، كما انتصب سبحان الله ، وهي مثناه على معنى التوكيد أي إلبابًا بعد إلباب وإقامة بعد إقامة [١].

وعلى هذا فإن التلبية تفيد لزوم الطاعة والإقامة عليها ، كما تفيد معنى الإجابة، فالإخلاصُ والخضوع والإذعان ولزوم الطاعة كلُّها معانٍ يدور حولها مفهوم التلبية .

والله سبحانه وتعالى قد بعث نبيه محمدًا ﷺ وقد غيمت على العالم سحب الباطل بأشكاله المختلفة، " فالعرب على عبادة الأوثان ووأد البنات، والفرس على تعظيم النيران ووطء الأمهات، والترك على تخريب البلاد وتعذيب العباد، والهند على عبادة البقر وسجود الحجر والشجر، واليهود على الجحود، والنصارى حيارى فيمن ليس بوالد ولا مولود، وهكذا سائر الفرق في أودية الضلال وأخبية الخيال والخبال" [٢]

ومن المعلوم أن شعيرة الحج كان لها تاريخٌ قديمٌ عند العرب في جاهليتها ، ولذا " كانت العرب إذا أرادت حج البيت الحرام وقفت كل قبيلة عند صنمها ، وصلوا عنده ، ثم تلبوا حتى تقدموا مكة ، فكانت تلبياتهم مختلفة ".[٣]

وإذا سلطنا الضوء على حالة العرب في جاهليتهم، وحقيقة عبادتهم للأوثان، فإننا نجد أنهم قد أقروا بوجود إله لهذا الكون يقوم على تدبيره هو الله تعالى، لكن مع

---

(١) انظر : لسان العرب ، ٧٣١/١ ، كتاب العين ٣٤١/٨ ، كتاب سيبويه ، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت : ١٨٠ هـ) ، ٣٥٣/١ ، دار الجيل – بيروت ، ط١ ، تحقيق : عبد السلام هارون .

(٢) شرح المقاصد، لسعد الدين التفتازاني ، ٤٠/٥ ، عالم الكتب – بيروت – ١٤١٩هـ-١٩٩٨م ، ط٢، تحقيق: د/ عبد الرحمن عميرة .

(٣) تاريخ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ، (ت : ٢٩٢ هـ) ، ٢٥٥/١ ، دار صادر – بيروت .

هذا أشركوا غيره معه في العبادة ، فكانوا يعبدون الأوثان معتقدين فيها النفع والضر مع الله عز وجل ، يقول سبحانه وتعالى مصورًا حالهم : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُون ﴾(١)

وهكذا توجه العرب قبل الإسلام لهذه الأوثان بالقرب والعبادة وأشركوها مع الله تعالى في طلب النفع ودفع الضر، ومع هذا كله فإنك إذا ما سألتهم عن علة توجههم لهذه الأوثان بالعبادة أجابوا بما حكاه القرآن الكريم عنهم : ﴿مَا نَعبُدُهُم إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زلفى﴾(٢) ، وهم كاذبون في قولهم هذا، فقد أَلَّهُوا هذه الأوثان ، وعبدوها أكثر مما عبدوا الله تعالى، لذا قال الله تعالى بعد حكاية قولهم آنف الذكر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحكُمُ بَينَهُم فِي مَا هُم فِيهِ يَختَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهدِي مَن هُوَ كَٰذِب كَفَّار ﴾(٣)

هذا، وقد شهد مشركو العرب على أنفسهم بهذا الشرك ، وتلك الشهادة اتضحت بصورة جلية في تلبيتهم في شعيرة الحج ، تلك الشعيرة التي كانت بقية باقية فيهم من ملة إبراهيم الخليل ، ولكنهم حرفوا وبدلوا وغيروا فيها .

فقد كان مشركو العرب يقولون في تلبيتهم: " لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك " (٤) ، فشهدوا بهذا على شركهم وكفرهم، وصدق الله تعالى

(١) سورة الزمر ، آية : ٣٨ .

(٢) سورة الزمر ، آية : ٣ .

(٣) انظر : مفاتيح الغيب ، لفخر الدين الرازي ، ٤٢٢/٢٤ ، دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٤٢٠هـ ، ط٣ ، والتحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور ، ٣٢٣/٢٣ ، الدار التونسية للنشر – تونس –١٩٨٤م .

(٤) صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، (ت : ٢٦١ هـ) ، ٨٤٣/٢ ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، برقم ١١٨٥ ، وراجع: جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر الطبري ، ٢٣٦/١٩ ، مؤسسة الرسالة – ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م ، ط١ ، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

إذ يقول:﴿ مَا كَانَ لِلمُشرِكِينَ أَن يَعمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلكُفرِ ﴾[١].

فهذه التلبية يظهر منها بصورة واضحة جلية أنهم مع إيمانهم بالله تعالى مُوجِدًا للكون ومدبرًا له إلا أنهم أشركوا هذه الأوثان معه في العبادة، قال تعالى ﴿وَمَا يُؤمِنُ أَكثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشرِكُونَ ﴾ ، جاء في تفسير هذه الآية عند الإمام الطبري: " حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: سمعت ابن زيد يقول : ﴿ وَمَا يُؤمِنُ أَكثَرُهُم بِٱللَّهِ ﴾ الآية ، قال : ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه ، وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيتُم مَّا كُنتُم تَعبُدُونَ أَنتُم وَءَابَآؤُكُمُ ٱلأَقدَمُونَ فَإِنَّهُم عَدُوّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلعَٰلَمِينَ ﴾ ، لقد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون ، قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به ، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول: " لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك" ؟ المشركون كانوا يقولون هذا " [٢].

المَطْلَبُ الثاني

الانزياح (تعريفه – أنواعه)

كانت اللغة العربية وما زالت سيدة لغات الأرض ، اختصها الله سبحانه وتعالى بأن جعلها لغة القرآن الكريم ، وهي ثرية طيّعة بطبيعة حالها ، كاشفة بذاتها عن حيويتها وجمالها ، واللغة الشعرية هي التي تختص بإبراز جماليات النصوص الأدبية، فهي تعنى بالبنى اللغوية والعلاقات القائمة بينها ، فإذا كانت اللغة العادية هي القالب الذي يُنسج فيه الأسلوب ؛ فإن اللغة الأدبية أو الشعرية تعنى بما وراء هذه الأنسجة اللغوية ، وتهدف إلى تحليل النصوص الأدبية محاولة فك شفراتها ؛ للكشف عن قيمها الجمالية ، وسماتها الفنية ، وتجلية غوامضها ، وثبر أغوار جوامدها ، فتحمل النص حملًا على الإقرار بما يحوي من أخبار ، والإفصاح عما يحمل من أسرار .

(١) انظر : مفاتيح الغيب ، ٩/١٦ .

(٢) انظر : جامع البيان في تأويل القرآن ، ٢٨٩/١٦ .

وعلى هذا فإن اللغة الشعرية لا يراد بها قطعًا الصورة اللغوية الأولى المجردة الساكنة ، ولكن يراد بها الصورة الحيوية المتمردة على القوالب المعجمية والقواعد النحوية والتقلبات الصرفية ؛ لتبلغ غايتها في الإفهام ، وتؤدي وظيفتها على وجه التمام.

تعريف الانزياح :

لم يعرف مصطلح الانزياح بمفهومه العلمي أو بوصفه وسيلة لتحليل النصوص الأدبية إلا في العصر الحديث ، وإن كان أصله اللغوي – الذي يدور مع مصطلحه في فلك واحد – قديمًا ، نَصَّتْ عليه المعاجم العربية ، فالانزياحُ في اللغة من نَزَحَ الشيءُ ينزحُ نَزْحًا ونزوحًا : بَعُدَ ، وشيءٌ نزُحٌ ونازحٌ ونزيحٌ : بعيد ، ونزحت الدار إذا بعدت ، والمنزاح : الذي يكثر الاغتراب إلى بلادٍ بعيدة .(١)

وهذا المعنى اللغوي شديد الصلة بمصطلح الأدباء والنقاد الذي يدور حول خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر الذي بَوَّب له البلاغيون ، بمعنى أن النسيج اللغوي المجرد غير مرادٍ في ذاته ، وإنما المراد ما ينطوي عليه هذا النسيج من حقائق ومعانٍ وأسرار .

ومصطلح الانزياحِ هو المعادل الموضوعي لكلمة " العدول " التي لم يتفق القدماء على وضع حدٍ لها معروف ، غير أنها تعني عندهم الخروج عن المألوف .

كما يعد مصطلح الانزياح معادلًا موضوعيًا لكلمات من نحو التجاوز ، الانحراف ، الاختلال ، الإطاحة ، المخالفة ، وغيرها عند المحدثين ، ولكن بقي الانزياح هو الأثير ، وبالنظر والتأمل والدراسة جدير ؛ لما قد تحمله بعض الدلالات الأخرى من الشطط والغلو في وصف هذا الخروج عن حد الإفادة والاعتدال لتُصَرِّح أو تُلَمِّح بالنقص الجمالي أو العيب الفني أو الخطأ أو مجانبة الحق أو الفساد السلوكي .(٢)

(١) ينظر : لسان العرب ، ٦١٤/٢ ، مادة : (نزح) .

(٢) ينظر : الانزياح التركيبي في النص القرآني دراسة أسلوبية ، صـ ٥٨ ، عبد الله خضر ، دروب للنشر والتوزيع – عمَّان/ الأردن – ٢٠١٦م ، الطبعة العربية .

أنواع الانزياح :

كثرت الدراسات الأسلوبية في الأعمال الأدبية – الشعرية والنثرية – وتداخلت واختلطت واختلفت وتفاوتت كمًا وكيفًا ، وتباينت وفقًا لذلك منهجية الدراسة عند الدارسين ، فسلك كُلٌّ طريقه ، باحثًا في أغوار النص وظلماته ليظهر ضوءَه وبريقه .

ولما كان الانزياح محاولة الخروج على القوالب الجامدة ، وإعادة النشاط إلى الأجساد الهامدة ، وإشعال جذوة النار الخامدة ؛ طرق بابه اللغويون ، وغازل جفنه البلاغيون ، وخطب وده النحويون ، فرفع كل منهم راية ، وإن اتحدت عندهم الغاية .

فقسمه بعضهم تبعًا لدرجة انتشاره في النص أو بحسب محدوديه نسبته أو إطلاقها ، فالكناية مثلًا توصف بأنها انزياح محدود النسبة بالنسبة للغة العادية ، أما التكرار فيعد انزياحًا شاملًا إذا كان منتشرًا في النص كله .

وذهب بعضهم إلى تقسيمه وفقًا لعلاقته بنظام القواعد اللغوية إلى انزياح سلبي وآخر إيجابي ، فالخروج على القواعد النحوية والصرفية يمثل انزياحًا سلبيًا ، بينما تمثل الإضافات أو المكملات كالتأكيد مثلًا ملمحًا من ملامح الانزياح الإيجابي .

واصطلح آخرون على تقسيمه إلى انزياح داخلي وآخر خارجي ، فالانزياح الداخلي يكون بالنظر إلى البنية اللغوية السائدة ، كأن يكون النص معتمدًا على الجمل الفعلية وتكون موجودة في طياته بكثرة ثم يفاجأ القارئ بجملة اسمية تقطع هذا النظام ، أما الانزياح الخارجي فليس مدركًا بالنظر إلى بنية النص بل بالنظر إلى بنية اللغة كالخروج على القواعد اللغوية. (١)

وقسمه بعضهم وفقًا للمستوى اللغوي إلى انزياح سياقي ، وصوتي ، ومعجمي ، ونحوي ، وصرفي ، ودلالي.(٢)

---

(١) ينظر : علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ، د/ صلاح فضل ، صـ ٢١٠ وما بعدها ، دار الشروق – ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، ط١ .

(٢) ينظر : الأسلوبية الرؤية والتطبيق ، د/ يوسف أبو العدوس ، صـ ١٨٧ ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة – ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٧م ، ط١ .

وأخيرًا فإن تقسيم الانزياح إلى انزياح تركيبي وانزياح استبدالي يُعدُّ من أكثر التقسيمات استخدامًا وشهرة ؛ بسبب ملائمته لدراسة النصوص الأدبية ، حيث معرفة الخروج عن الأصل وإبراز جمالية هذا الخروج ، فضلًا عن اعتماده على كل علوم العربية من بلاغةٍ ونحوٍ ودلالة ، كما أنه يمكننا من الوقوف على شخصية قائل النص ونفسيته ومعرفة الدواعي والأسباب التي دفعته للانزياح أو العدول ، ومن ثم كان هذا التقسيم الأخير هو أساس الدراسة وعمادها .

المَبْحَثُ الأَوَّلُ :

الانزياح الاستبدالي

إنَّ أبرز سمة يتسم بها الانزياح الاستبدالي أن قوامه الاستبدال أو التجديد والإحلال ، بمعنى أَنَّ الأديب لا يعبر عن معناه بطريقة مباشرة ، وإنما يعبر عنه بلفظ هو موضوع في الأصل بمعنى آخر ، مع وجود علاقة رابطة بين المعنيين ، فنقل اللفظ أو التركيب من استعماله الأصلي ليستعمل في سياق ومقام آخرين هو لُبُّ الانزياح الاستبدالي .

معنى ذلك أن عملية الاستبدال قائمة على استبدال البنية السطحية للكلمة ببنية عميقة تستتر خلف ظاهر النص ، بحيث تؤدي دورًا انفعاليا في النفس ، فـ " هذا الانزياح لا يراد به إبدال أحد المعنيين بالآخر ، بقدر ما يراد به عملية التفاعل بين المعنيين ، أي أن المعنى الأساسي للفظة لا يختفي ، ولكنه يتراجع إلى خط خلفي وراء المعنى السياقي ، وهكذا تقوم بين المعنيين علاقة تفاعل يبرز الانزياح من خلالها "[١] ، فالانتقال من ظاهر اللفظ إلى جوهر المعنى أو من الدال إلى المدلول هو أبرز خصائص هذا النوع من أنواع الانزياح .

ولا يخفى أن المجاز هو عماد الانزياح الإبدالي ، والمجاز – كما هو معلوم – استعمال اللفظ أو التركيب في غير ما وضع له ، مع وجود علاقة بين ما وضع له وما استعمل فيه ، وقرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي . أو هو " انحراف عن الاستخدام العادي للغة ، سواء كان ذلك عن طريق استعمال الكلمة في غير ما وضعت له ، أو إسنادها إلى ما لا ينبغي أن تسند إليه في النظام المألوف للغة " [٢]

(١) ينظر : أسلوبية الانزياح في النص القرآني – رسالة دكتوراه ، إعداد : أحمد غالب النوري الخرشة ، صـ ٣٨ ، الأردن / جامعة مؤتة / قسم اللغة العربية وآدابها – ٢٠٠٨م .

(٢) نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د/ صلاح فضل ، صـ ٢٤٨ ، دار الشروق – القاهرة / مصر – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م ، ط١ .

وكون المجاز يعني أن شيئًا ما يعني شيئًا آخر ، مع الأخذ في الاعتبار أن الأصل إنما هو البنية السطحية ، وأن المراد إنما هو البنية العميقة ؛ فهذا مما يؤكد العلاقة بين المجاز البلاغي والرمز الأدبي ؛ إذ إن الرمز يعتمد على اكتشاف أوجه التشابه بين الرمز والمرموز ، هذا التشابه الذي يعطي الرمز قوته الكامنة ، وفورته الباطنة ، ولا يقصد أبدًا بهذا التشابه مجرد التجانس الحسِّي ، بل تلك الروابط الداخلية بين الدّال والمدلول أو الرمز والمرموز من تناسب والتئام ، وتوافق وانسجام ، وغير ذلك من السمات المشتركة بينهما [١]

نستخلص مما سبق أن الانزياح الاستبدالي طريق غير مباشر من طرق التعبير ، يعتمد على التكنية والتغيير ، وسيلته بعض الألوان البلاغية التي يتم فيها انحراف في معانيها ، متكئًا على علم الدلالة الذي يكشف عن أصول الكلمات ومبانيها . غايته الكشف عن القيم الفنية والجمالية في النصوص الأدبية .

(١) ينظر : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، د/ محمد فتوح أحمد ، صـ ٣٣ وما بعدها ، دار المعارف – القاهرة –١٩٨٤م ، ط٣ .

صور الانزياح الاستبدالي

المطلب الأول : الاستعارة

إن أول ما يطالعنا في جمال الاستعارة طريقة تأليفها ، ونظم ألفاظها ، فهي تقوم على تناسي التشبيه ، مما يضطرك إلى تصور صورة جديدة ، وكأننا أحللنا هذه الصورة الجديدة محل الأخرى الخفية المتوارية .

وهذا الإحلال والتجديد في ذاته ابتكار وإبداع ، وأنس وامتاع ، فتراك تحلق بين سماوات الخيال فتحرك الجبال ، وتشخص التلال ، وتخاطب الهلال ، فأي جمالٍ هذا الذي صنعت ؟ وأي خيال هذا الذي أبدعت ؟

والاستعارة أحد قسمي المجاز ، وهي تقوم على المشابهة بين حقيقة اللفظ المستعمل والمعنى المجازي المراد ، وهي في أصل وضعها تشبيه محذوف أحد الطرفين ، حيث إنك " تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر ، مدعيًا دخول المشبه في جنس المشبه به ، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به " (١).

والاستعارة هي أولى صور الانزياح الاستبدالي ؛ لأنها " علاقة لغوية تقوم على المقارنة ، شأنها في ذلك التشبيه ، ولكنها تتمايز عنه بأنها تعتمد على الاستبدال ، أو الانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات المختلفة ، أي أن المعنى لا يقدم فيها بطريقة مباشرة ، بل يقارن ويستبدل بغيره على أساس من التشابه " (٢)

وقد لعبت الاستعارة دورًا كبيرًا في الأحكام النقدية في تراثنا الأدبي القديم ،

---

(١) مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي ، صـ ٣٦٩ ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان– ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ط ٢ ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه / نعيم زرزور .

(٢) الاستعارة في النقد الأدبي الحديث الأبعاد المعرفية والجمالية ، صـ ٧ ، د/ يوسف أبو العدوس ، الأهلية للنشر والتوزيع – عمان / الأردن – ١٩٩٧م ، ط ١ .

باعتبارها أبرز الوسائل البيانية التي لا يمكن الاستغناء عنها في تشكيل الصورة الأدبية بأنواعها المختلفة ، فهي ليست حليه شكلية ، ولا زينة لفظية ، ولكنها أساس العمل الأدبي ، حيث يتشكل الواقع من جديد في ثوبها ، ويستبدل الحالُّ بالمراد في زِيّها ، فضلاً عن إفادتها المبالغة والتأكيد والإيجاز ؛ فهي دُرَّةُ البيان وعروس المجاز .

والاستعارةُ أعلى في الناحية الجمالية والفنية من التشبيه ، لأنها تقوم على التناسي أولاً ، ثم الادِّعاء ثانيًا ، فإذا نجح الأديب في سبك التناسي تَيَسَّر له سبيل الإدعاء ، وكون الاستعارة تعتمد على أحد طرفي التشبيه متجاهلةً ومتغافلةً عن الطرف الآخر مما يُعَضِّدُ موقف الادعاء في هذه الصورة البيانية الفذة ، فيستحيل الادّعاء بعد التناسي إلى إقرار ، ويستحيل الإقرار إلى واقع ليس له من دافع .

والاستعارة في الانزياح الاستبدالي جزءٌ لا يتجزأ ؛ فهي الصورة الأولى فيه والمبدأ ، وهي الإثبات والبرهان الاستدلالي على كل تغيير في الانزياح الاستبدالي .

وخلاصة القول فيها أنها تعتمد على نقل اللفظ في أصل وضعه اللغوي من دلالته الشكلية الظاهرة ، لتستعمل في غير هذا الأصل المتعارف ، وكأن الأديب يحيك بها ثوبًا جديدًا ، وينسج من خلالها أسلوبًا فريدًا ؛ حتى ليدُهَشَ المتلقي ، وينصرف لفرط جمالها عن المعنى المتبقي .

وقد لعبت الاستعارة دورًا فاعلًا في تلبيات العرب في الجاهلية ، حيث إنها جَسَّدت فأَصَّلَت ، وشخَّصت فأحكمت ، وعبَّر العربي – من خلالها – عن حالته النفسية ، ووجهته العقدية ، من ذلك تلبية[1] قريش

(١) المحبر، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية البغدادي (ت: ٢٤٥هـ) ، ١/٣١٥ ، (د . ت).

لِهُبَل[١]:

لَبَّيْـــــــكَ اللَّهُـــــــمَّ لَبَّيْـــــــكَ
لَبَّيْـــــــكَ إِنَّنَـــــــا لَقَـــــــاح[٢]
حَرَّمْتَنَـــا عَلَـــى أَسِـــنَّةِ الرِّمَـــاح
يَحْســـدُنَا النَّـــاسُ عَلَـــى النَّجَـــاح

ففي قولهم " حرمتنا على أسنة الرماح " ، استعارة باعتبارات مختلفة ، فباعتبار الطرفين يمكن أن نجري فيها استعارة مكنية ، حيث شبه الرماح بالإنسان الذي يحتمل التشريع والتحريم ، وحذف المشبه به ، وأتى بلازم من لوازمه وهو التحريم ، وهي استعارة أصلية باعتبار اللفظ المستعار ، ويمكن أن يكون فيها استعارة تبعية في " حَرَّمتنا " باعتبار اللفظ ، حيث شبه منعتهم وعزتهم وعدم خضوعهم لأحد بالتحريم بجامع عدم القرب في كلٍ ، ثم اشتق من التحريم بمعنى المنع حرمتنا بمعنى منعتنا ، وأيًّا ما كان المقصود منهما فالمردود قريب فيهما ، وإن كانت التبعية أقربهما ؛ يُرَشِّحُ

(١) كانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها عندهم هبل ، وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب ، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن اليأس بن مضر، وكان يقال له : هبل خزيمة ، وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة أقدح ، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي يقول له أبو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد : أُعل هبل أي : علا دينك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أعلى وأجل ، الأصنام، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، (ت : ٢٠٤ هـ)، ٢٧/١ ، دار الكتب المصرية – القاهرة – ٢٠٠٠م، ط٤، تحقيق : أحمد زكي باشا، وينظر: سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي) ، محمد بن إسحاق بن يسار، (ت: ١٥١ هـ) ، ١٠/١، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف ، تحقيق : محمد حميد الله .

(٢) وقوم لقاح ، وحي لقاح : لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم في الجاهلية سباء ، لسان العرب ٥٨٣/٢ ، مادة : (لقح) .

لهذا المعنى قولهم " إننا لقاح " ، أي : لم نخضع لأحد ولم يتملكنا أحد .

ونظرةُ الفخر بادية ، ونبرةُ العُجْبِ عالية ، فهم إذ يُلبون يمتنُّون ويشكرون ، إلهٌ يمنع الناس عنهم ، وينزع الخوف منهم ، جديرٌ – عندهم – بهذه التلبية ؛ لأن الإنسان في حياته يتلمسُ الأمان ، يقطع لأجله الفيافي والوديان .

ولما كانت الحروب القبلية ذائعة ، ومصادر الخوف شائعة ؛ احتاج العربي في الجاهلية إلى ملاذٍ يحميه ، وغطاءٍ يقيه ، فدفعه ذلك إلى أن يدين بالولاء والطاعة إلى معبودٍ حسيٍّ يستحق الحمد والتبجيل ، ويتقربون إليه بالثناء والتهليل .

إنها ثنائية (الخوف والأمان) ، الصراع الأبدي داخل نفس الإنسان ، الخوف من المصير والمجهول ، الذي أملى على العربي الجاهلي أن يتوجه إلى إله بالعبودية والإذعان ؛ استجابةً لصراعه الداخلي ، وحبًّا لبقائه الوجودي .

لقد نجحت الاستعارة من خلال طريقة نظمها ، ووشي لفظها في كبح جماح الخوف ، وأحدثت أثرها في النفس ، فتحققت الأمنية المرجوة ، وظلت كلمة "حرمتنا " – عندهم – مَثْلُوَة ، حيث حكمُ مسِّهم بأذى التحريمُ ، وجزاء فاعله التجريمُ .

وفي تلبية ثقيف [١] لِلَّات والعزى[٢] :

لَبَّيْـــــــكَ اللَّهُـــــــمَّ لَبَّيْـــــــكَ

هَـــــذِي ثَقِيـــــفٌ قَـــــدْ أَتوكَـــــا

وَخَلَّفُـــــوا أَوْثَـــــانَهُم وَعَظَّمُوكَـــــا

قَـــدْ عَظَّمُـــوا المَـــالَ وَقَـــدْ رَجُوكَـــا

عُـــــزَّاهُم والـــــلَّاتُ فِـــــي يَـــــديكَا

دَانَـــتْ لَـــكَ الأَصْـــنَامُ تَعْظِيمًـــا إِلَيْـــك

الأصنام تطيع ! والجماد يُذعِن !

إن من يمعن النظر في قول ثقيف : " دانت لك الأصنام " يجد التشخيص قائمًا ، والإذعان كائنًا ، حيث شُبهت الأصنام بالأناسي العقلاء ، يخضعون ويذعنون ، يعبدون ويوقرون ، يطيعون ويعظمون .

لقد وضعتنا هذه الاستعارةُ المثيرة في حيرة ، فإذا كانت الأصنام التي يعبدونها تعبد إلههم فَلِمَ يعبدونها ؟ وهل كانوا يعبدون الله الذي نعبده نحن المسلمين ؟

(١) الأزمنة وتلبية الجاهلية ، محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي، الشهير بقُطْرُب، (ت : ٢٠٦هـ)، ٣٩/١ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، ط٢ ، المحقق: د حاتم صالح الضامن ، تاريخ اليعقوبي ،٢٥٥/١ .

(٢) اللات بالطائف ، وهي أحدث من مناة ، وكانت صخرة مربعة ، وكان يهودي يلت عندها السويق، وكان سدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك ، وكانوا قد بنوا عليها بناء، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها ، وبها كانت العرب تسمى زيد اللات وتيم اللات ، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم، فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف ؛ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار ، الأصنام ، ١٦/١ ، مجاز القرآن ، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى (ت : ٢٠٩هـ) ،١١٨/١ ، (د. ت/ط) .

لعل الإجابة على هذه الغرابة تتمثل في قول الله تعالى :﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(١)، فالعرب في الجاهلية إذن كانوا يعرفون الله ويعبدونه ويتقربون إليه ، ولكنهم مع ذلك كانوا يعبدون الأصنام ، فهم بذلك وثنيون مشركون ، يتخيلون إلهًا ، ويجسدون آلهة ، معاييرهم مُخْتَلّة ، وعقولهم مُحْتَلّة!

ولأن الإنسان يجنح إلى المحسوس أكثر من المعقول ؛ فربما كان هذا دافع ثقيف لاتخاذ أوثانهم الحسية قربةً إلى الله – الغيبي عندهم – الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ، وهذا يرشدنا إلى عدم إنكارهم لوجود الله ، ولكنهم ينكرون اختزال آلهتهم في معبود واحد ، على حد قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾(٢)، وهذه الازدواجية في العقيدة لا تنتج إلا عن عقول عنيدة ، رفضت الخضوع والإيمان بالواحد الدَّيَّان .

وبالعودة إلى الاستعارة المكنية في قولهم " دانت الأصنام " نجد أن سمة التشخيص تطغى على ما عداها ، وتعلو على ما سواها ، حيث " إنك لترى بها الجماد حيًّا ناطقًا ، والأعجمَ فصيحًا ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية "(٣) ، وهكذا لعبت الاستعارة دورًا بارزًا في بيان عقيدتهم – على بطلانها–، ووثنيتهم– على فسادها – .

(١) سورة العنكبوت ، آية ٦١ .

(٢) سورة ص ، آية ٥ .

(٣) أسرار البلاغة ، الجرجاني(ت : ٤٧١ هـ) ، ١ /٣٣ ، (د.ت / ط) .

ومن الاستعارات أيضًا ما ورد في تلبية قضاعة[١] للسعيدة[٢] ومناة[٣]:

لَبَّيْــكَ نُزْجِــى كُــلَّ جَرْمــي[٤]مَلْهُــود[٥]

وَلَاحِــــبٍ[٦] مِـــنْ عَجَاجَـــاتِ العُـــود

نَـــؤُمُّ بيـــتَ المُسْـــتَجِيبِ المَعْبُـــودْ

نرى الاستعارة باعتبار الطرفين استعارة مكنية ، حيث شبهوا الأشخاص الذين ينتمون إلى " جرم " وهم بطن من قضاعة بالإبل تُزْجى وتساق ، وحذفوا المشبه به وهو الإبل المتدافعة ، وصرحوا بالمشبه ، وأتوا بما يدل على المشبه به المحذوف وهو كلمة " تزجي " ، ويمكن اعتبارها استعارة تبعية باعتبار اللفظ

(١) الأزمنة، ٤٢/١ .

(٢) السعيدة : صنم أنثى ، وعلامة تأنيثه وجود تاء التأنيث بآخره ، وكان لسعد هذيم ، وسائر قضاعة إلا (بني وبره) ، وعبدته الأزد أيضًا ، وكان سدنته (بني عجلان) ، وموضعه بأحد ، وورد أن السعيدة بيت كان يحجه ربيعة في الجاهلية ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي ، ٢٨٨/٦ ، ١٤١٣هـ –١٩٩٣م ، ط٢ .

(٣) كان أقدمها كلها مناة ، وقد كانت العرب تسمى عبد مناه وزيد مناة ، وكان منصوبا على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وكانت العرب جميعا تعظمه وتذبح حوله ، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له ، وكان أولاد معد على بقية من دين إسماعيل عليه السلام ، وكانت ربيعة ومضر على بقية من دينه ، ولم يكن أحد أشد إعظاما له من الأوس والخزرج ، فلم يزل على ذلك حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة سنة ثمان من الهجرة وهو عام فتح الله عليه فلما سار من المدينة أربع ليال أو خمس ليال بعث عليا إليها فهدمها ، الأصنام ، ١٣/١–١٥ .

(٤) جرم : بطنان بطن في قضاعة وهو جرم بن زيان ، والآخر في طيء ، لسان العرب ، ٩٥/١٢ ، مادة : (جرم) .

(٥) ملهد أي مستضعف ذليل ، ويقال : لهدت الرجل ألهده لهدا أي دفعته ، فهو ملهود ، لسان العرب ٣٩٤/٣ ، مادة : (لهد).

(٦) اللحب : الطريق الواضح ، و اللاحب مثله ، لسان العرب ، ٧٣٧/١ ، مادة : (لحب) .

المستعار" تزجي" ، حيث شبهوا حشد الناس وتدافعهم بسَوق الإبل إلى مرعاها ، ثم اشتقوا من الإزجاء بمعنى الجمع والحشد والتدافع " نزجى " بمعنى نجمع ونحشد على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل .

ويبدو أن جمال الاستعارة متمثل في باعثها ، فالباعث هنا – كما يتراءى لي – هو الحب الذي يستوجب الحمد ، والرغبة في استجابة مطالبهم من معبودهم المُلْهِم ، ولعل هذا ما يفسر ظاهرة التدين في المجتمع الجاهلي ، فعبدت الآلهة وعظمت خوفًا وطمعًا ، ونالت حظًا كبيرًا من الاحترام والهيبة ، والتعبير عن هذا المعبود بالمستجيب يوحي بأنهم راجين كلَّ الرجاء الرحمةَ وحسن الجزاء ، وفي جميع الأحوال لا أملك القطع بدافع معين لأن النفوس البشرية متباينة ، وأمزجة البشر متقلبة ، ولست أرى سوى أنهم يخلعون ما يجدون في نفوسهم على آلهتهم ، فعلى حسب أمزجتهم المضطربة تكون تلبيتهم المرتقبة ، فإذا كانت أمزجتهم قلقة ضجرة ، أو خائفة وَجِلَة ؛ كانت التلبية إلى التضرع أوقع ، أو كانت سعيدة منتشية ؛ كانت التلبية إلى الحمد والثناء أسرع .

انظر كيف أبان الانزياح عن الغرض ، فالناس تُساق ، وكأنهم في سباق ، دافعهم الرغبة المُلحَّة إلى الحج ، فتجمعوا من كل صوبٍ وفج ؛ للتعبد وإقامة الشعائر لإلههم المستحق لكل هذا التبجيل .

ومن تلبية[١] همدان :

لَبَّيْـــــــــكَ رَبَّ هَمْـــــــــدَان

مِـــــنْ شَـــــاحِطٍ[٢] وَمِـــــنْ دَان

جِئْنَـــــاكَ نَبْغِـــــي الإِحْسَـــــان

بِكُـــــلِّ حَـــــرْفٍ[٣] مِـــــذْعَان

نَطْـــــوي إِلَيْـــــكَ الغِيطَـــــان[٤]

نَأْمَـــــلُ فَضْـــــلَ الغُفْـــــرَان

ولا تختلف تلبية همدان عن تلبية قضاعة السابقة ، ففي قولهم : " نطوي إليك الغيطان " استعارة تبعية باعتبار اللفظ المستعار – وأحسبها المرادة – في كلمة " نطوي " ، وفيها استعارة مكنية باعتبار الطرفين في كلمة " الغيطان " ، حيث شُبِّهت الغيطان وهي الأراضي المتسعة بالثياب تُطوى جنباتها ، وبالكتب تُجمع صفحاتها ، وبكل متطابقين يجتمعان ، ومتماثلين يلتئمان، ثم حذف المشبه ، ورمز له بشيء من لوازمه وهو " الطيّ " على سبيل الاستعارة المكنية .

كما يمكن تشبيه السرعة في قطع المسافة بالطيّ بجامع السهولة واليسر في

(١) رسالة الغفران ، أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي ،المعروف بأبي العلاء ، (ت : ٤٤٩ هـ)،٢٥١/١ ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ١٤٢٢ هـ –٢٠٠١ م ، تحقيق : علي حسن فاعور ، ينظر : مناقب الأسد الغالب ، ابن الجزري شمس الدين محمد بن محمد، (ت : ٨٣٣هـ) ، ١٨/١، (د. ت /ط) .

(٢) الشحط : البعد ، لسان العرب ، ٣٢٧/٧ ، مادة : (شحط) .

(٣) الحرف من الإبل : النجيبة الماضية التي أنضتها الأسفار ، شبهت بحرف السيف في مضائها ونجائها ودقتها ، وقيل : هي الضامرة الصلبة ، شبهت بحرف الجبل في شدتها وصلابتها ، لسان العرب ، ٤٢/٩ ، مادة : (حرف) .

(٤) غيطان المتسع من الأرض ، لسان العرب ، ٣٦٤/٧ ، مادة : (غوط) .

كلٍ – وهو أولى – ثم حذف المشبه وصرح بالمشبه به ، واشتق من الطيّ بمعنى السرعة " نطوي " بمعنى " نسرع " على سبيل الاستعارة التصريحية .

الفكرة – الباطلة –سامقة ، والعقيدة – الفاسدة – سابقة ، يحدون الأمل أو يحدو بهم في سيرهم إلى ربهم ، لقد جمعوا القاصي والداني ، وخلطوا الماضي بالآني رغبة في إحسان معبودهم ، ركبوا الحروف السريعة ، النجيبة المطيعة ، يطوون بها الأرض ، ويضمون طولها إلى العرض ، التماسًا لرضا الرب الذي يستسهلون من أجله الصعب ، راجين مغفرته ، آملين رحمته .

وبعيدًا عن الفكرة والعقيدة ، انظر إلى الغطيان كيف تطوى ، والمساحات كيف تُلْوى ، والعلامات كيف تُمْحى ، جهدٌ وفير ، وتعب كثير ، وسفر ونفير ، إلى ربهم ، حبًا وتقرُّبًا ، ودعاءً وتعبُّدًا .

وعلى الرغم من انعدام الباعث الحقيقي – في رأيي – أو خفائه ، إلا أن هذا الضرب من الابتداع لا يتعدى مجرد الاتباع ، فسلوكهم الديني نابع من عواطفَ جمعِيَّةٍ مشتركة تظهر في هيئة طقوس وشعائر وعبادات .

إن الانزياح الذي أحدثه الطيّ أبان عن شوق ولهفة ، وتطلع ورغبة في سرعة الوصول ، لتحقيق الهدف المأمول .

ومن تلبية[1] النخع :

لَبَّيْكَ ربّ الأرضِ والسَّمَاء

وخَالِقَ الخَلْقِ وَمُجْزِي المَاء

مُعَصَّبٌ بِالمَجْدِ والسَّنَاء

لِعَائِشٍ فَضَائِلَ النَّعْمَاء

فِي العَالَمِينَ ، وَالجَمِيعُ يَفْدِيه: الآباءُ والأَبْنَاء

(١)الأزمنة ، ١ / ٤٣ .

وما زال الانزياح الاستعاري يلعب دورًا بارزًا في الكشف عن القيم الفنية العالية في هذه التلبيات ، ففي هذه التلبية في قولهم : " معصب بالمجد والسناء " نجد المعنى محسوس ، والمعقول ملموس ، لقد لعبت الاستعارة دورًا في وضوح معنى المبالغة ، فالمجد والرفعة والشرف أناسيّ متحركة وثّابة ، ترتدي عصابة !

وعلى الرغم من أن هذا المعنى – فيما أرى – ليس أصلًا مرادًا ، إلا أن الاستعارة فيه أَخّاذَة ، ورائحة جماله نفَّاذة .

والاستعارة التبعية واضحة جلية في كلمة " مُعَصّب " حيث شُبّه التَّلَبُّس والإحاطة بالعصابة توضع على الرأس ، وحذف المشبه ، واشتق من العصابة بمعنى الإحاطة مُعَصَّب بمعنى محاط على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية .

وسواء أكان المجد يرتدي عصابة ، أم أن إلههم محاط بالسمو متسم بالعلو ؛ فمعنى التعظيم سائد ، ومفهوم التوقير شاهد ، غير أن اللافت للنظر في هذه التلبية – على وجه التحديد – أن محتواها مُشعِرٌ بالتوحيد ، فالمعبود المقصود هو رب الأرض والسماء ، خالق الخلق ومجري الماء ... ، وكأن العرب في الجاهلية كانت لديهم قناعتان ، إحداهما : حتمية وجود إله ، والأخرى : ضرورة أن يكون الإله مجسدًا ولو في صورة حجارة ! وإلَّا فما سبب وجود الأصنام والأوثان رغم اعترافهم بوجود الخالق ؟

ولستُ أرى سببًا – فيما يبدو لي – إلا رغبتهم الجامحة في موافقة بصيرتهم لبصرهم ، فالإله يجب أن يكون حاضرًا لا غائبًا ، مرئيًا لا غيبيًّا .

وبالعودة إلى الانزياح من خلال الاستعارة ، نجد أنهم قد خلعوا على معبودهم كل سمات الجلال والسمو والرفعة ، بل إن هذه الصفات ملازمة لإلههم لا تنفك ، تستوجب الاعتراف بها ولا شك .

ومن الانزياح الاستبدالي عن طريق الاستعارة تلبية[1] سعد :

لَبَّيْـــكَ عَـــنْ سَـــعْدٍ وَعَـــنْ بَنِيْهَـــا

وَعَـــنْ نِسَـــاءٍ خَلْفَهَـــا تَعْنِيهَـــا

سَـــارَتْ إِلَـــى الرَّحْمَـــةِ تَجْتَنِيهَـــا

وفي هذه الاستعارة نرى الرحمة ماثلة ، يستطيع الإنسان أن يسير إليها ، وهي مطلب عظيم من حازه نال سرحة الوقار ، وقطف أطيب الثمار .

الرحمة تجتنى ، وتقطف وتقتنى ، ثمار يانعة ، وزهور يافعة ، دَلَّت على ذلك الدَّوال ، فانزاح الستار عن هذا الجمال ، حيث شبهت الرحمة بالثمار الناضجة حان قطافها ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (تجتنيها) ، والذي يمكن أن يكون مشبهًا به في استعارة تبعية ، إذ شبه الحصول على الرحمة بالجني بجامع النفع في كل ، ثم اشتق من الجني بمعنى الحصول على الرحمة (تجتنيها) بمعنى (تحصل عليها) .

ونلحظ أن الانزياح من خلال الاستعارة قد أدّى دوره وزاد ، وشرح المعنى وأفاض ، فأبلج مبهمه ، وفتح مستغلقه ، فضلًا عن إبرازها المعقول في صورة المحسوس فاستعارة الرحمة للثمار فيه تثبيت لمعناها ، وإعلاء لمبناها ، وترسيخٌ لمفهوم أنهم لا يقتصرون على أداء شعائر مجردة عن الأهداف ، فالوصول إلى الرحمة غايتهم ، وجني نفعها بغيتهم.

وبعد هذا التطوف في استعارات العرب في الجاهلية في تلبياتهم نلاحظ الآتي :

- ترك العرب في الجاهلية الأسلوب الحقيقي واستعاضوا عنه بالأسلوب المجازي على صورة الاستعارة لتوصيل أفكارهم وتأصيل معانيهم .

(١) دراسات في الأدب الجاهلي – مباحث تراثية ونصوص دينية وتراجم – ، عادل جاسم البياتي ، ١٧٧/٢ ، مكتبة الأدب المغربي – ١٩٨٦م .

- اتسمت استعاراتهم بالوضوح والجلاء ، فلا يكابد الباحث عنها أي مشقةٍ أو عناء .
- كانت الاستعارة المكنية باعتبار الطرفين أكثر ورودًا من الاستعارات التصريحية ؛ نظرًا لحاجتهم الماسة إليها في تجسيم المعنوي وتشخيصه .
- جاءت الاستعارات التبعية باعتبار اللفظ المستعار أكثر من الاستعارات الأصلية ؛ نظرًا لدماثه ذائقتهم اللغوية ، وغزارة صورهم الجمالية ؛ فالابتكار مع روعة الخيال أولى خصائصها .
- ناسبت استعاراتهم مقامتهم ، ووافقت مقالتهم ، دون تكلُّف أو تَعمُّل ، مع براعتهم في التقاط وجه الشبه السريع الخاطف بين الدَّال والمدلول .

المطلب الثاني : الكناية

تُعَدُّ الكناية مسك الختام ، وقافية الكلام ، وغايةَ المرام ، وبدر التمام في علم البيان ، وهي جامعة مانعة ، فريدةٌ شائعة ، واضحة غامضة ، ذات لقطات وامضة ، تعتمد على فطرية الملكات ، وتفاوت القدرات في إدراكها ؛ حيث يستتر المعنى المراد – وقد يُرَاد – فلا يصل إليه السامع إلا كما يحوز قصبَ السبقِ السابقُ من الجياد .

والكنايةُ حُرَّةٌ أبية تأبي قيود المشابهة ، كريمةٌ معطاءة ، يتسع صدرها للمعنى الأصلي فلا تصده ، وتحتويه ولا ترده ، وهي مع كل ذلك " لون من ألوان الخيال ، ووسيلة من وسائله الخصبة ، لا تقل عن الاستعارة في الأثر النفسي " (١)

ولأن الإلماح أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أقوى من التصريح ؛ اكتسبت الكناية قيمتها ، واحتفظت شامخة بمكانتها المحايدة ، من خلال علاقة التلازم السائدة ، وقرينتها غير المعاندة ، والكناية بين بين فلا هي تحت المجاز الخالص تنطوي ، ولا إلى الحقيقة الخالصة تنتمي ، فهي مجاز حقيقي ، أو حقيقة مجازية .

والذي يهمنا في هذه الدراسة هي الكناية باعتبارها من أبرز صور الانزياح الاستبدالي ، وقد أدرك هذه القيمة الفنية للكناية قديمًا الإمام عبد القاهر في تعريفة إياها بقوله : " والمراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيوميءُ به إليه ، ويجعله دليلًا عليه " (٢)، وما الانزياحُ سوى ما أقرَّ به الإمام عبد القاهر ؟! لفظ ظاهر ، ومعنى حاضر ؟ فالكناية صورة من صور انزياح الاستبدال ،

(١) البناء الفني للصورة الأدبية عند ابن الرومي ، علي علي صبح ، صـ ٢٠٩ ، مطبعة الأمانة – ١٢٩٦هـ – ١٩٧٦م ، ط١ .

(٢) دلائل الإعجاز ، صـ ٦٦ .

وفيما سبق ما يغني عن الاستدلال.

والتلازم في الكناية بين المعنى المكنى عنه والمعنى المكنى به ظاهر واضح ، وقد يصل المخاطب بهذا الأسلوب إلى المعنى المراد بكل يسر وسهولة ، وقد يحتاج لأناة وبعد نظر إذا تعددت الوسائط بين المعنيين .

وتتجلى القيمة الفنية للكناية في هذه الدراسة من خلال إثارتها للذهن ، وإعمالها للعقل ، وتنشيطها للفكر ، فضلاً عن دفع الرتابة والملل عندما ينتقل الذهن من دلالة إلى دلالة ومن وسيلة إلى غاية .

كما تتمثل هذه القيمة في ابتعاد الكناية عن الألفاظ المستقبحة التي تمجها الآذان وتلفظها الأذهان ، كما أنها تثبت المعنى بالدليل ، وهي خصيصة جلية ثابتة في معظم أنواعها.

وقد كثرت الكنايات وتنوعت في تلبيات العرب في الجاهلية ، فكانت الكناية عن صفة وعن موصوف وعن نسبة ، منها ما يطالعنا في تلبية قريش[١]

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد ، (ت : ٢١٣ هـ) ، ٢٠٣/١ ، دار الجيل – بيروت – ١٤١١ ، ط ١، تحقيق : طه عبد الرءوف سعد ، وانظر : أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، (ت : ٢٥٠ هـ) ،١٩٤/١ ، دار الأندلس للنشر – بيروت – ١٩٩٦م– ١٤١٦هـ ، تحقيق : رشدي الصالح ملحس ، الأزمنة ، ٣٩/١ ، ريب الحديث ، أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان، (ت :٣٣٨هـ) ، ٢٢٧/٢ ،جامعة أم القرى – مكة المكرمة – ١٤٠٢ ،تحقيق : عبد الكريم إبراهيم العزباوي ، معرفة الصحابة ، لأبي نعيم الأصبهاني ، (ت : ٤٣٠هـ) ، ٢١١٥/٤ ، (د. ت /ط) ،رسالة الغفران ١ / ٢٥٠ ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، (ت : ٥٤٦هـ) ، ٢٨٥/٣ ، دار الكتب العلمية – لبنان – ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م ، ط١ ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد .

لإساف ونائلة[١] :

لَبَّيْـــــــكَ اللَّهُـــــــمَّ لَبَّيْـــــــكْ

لَبَّيْـــــــكَ لَا شَـــــــرِيكَ لَـــــــكْ

إِلَّا شَـــــــرِيكٌ هُـــــــو لَـــــــكْ

تَمْلِكُـــــــهُ وَمَـــــــا مَلَـــــــكْ

أَبُـــــو بَنَـــــاتٍ فِـــــي فَـــــدَكْ[٢]

فقولهم " أبو بنات " كناية عن موصوف وهو – في معتقدهم – الله – تعالى عما يقولون عُلُوًّا كبيرا ، فمفهوم الإله عندهم موجود ، لكنهم يشركون معه آلهة أخرى ، وربما يكون تعدد الآلهة – كما سلف – من باب أنه لازم في معتقدهم أن يكون الإله محسوسًا ، مع إقرارهم بوجود قوة غيبية تملك كل شيء حتى الآلهة التي يتقربون بعبادتها إلى الله (الغيبي) ، وهو مع ذلك أبو بنات ! شفاعتهن مرجوة ، التوسل بهن محمود ، والإيمان بهن موجود .

(١) إساف ونائلة : رجل من جرهم يقال له إساف بن يعلى ، ونائلة بنت زيد من جرهم ، وكان يتعشقها في أرض اليمن ، فأقبلوا حجاجا فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت ففجر بها في البيت ؛ فمُسِخَا ، فأصبحوا فوجدوهما مسخين ، فأخرجوهما فوضعوهما موضعهما فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب ، الأصنام٩/١ .

(٢) فدك : قرية بخيبر ، وقيل بناحية الحجاز فيها عين ونخل ، لسان العرب ، ٤٧٣/١٠ ،مادة :(فدك).

ومما يفسر هذا الادعاء قول [١] زيد بن عمرو بن نفيل [٢]:

تَرَكْـــتُ الـــلَّاتَ وَالعُـــزَّى جَمِيعًـــا كَـــذَلِكَ يَفْعَـــلُ الجَلْـــدُ الصَّـــبُورُ

فَـــلا العُـــزَّى أَدِيـــنُ وَلا ابْنَتَيْهَـــا وَلا صَـــنَمَي بَنِـــي غَـــنَمٍ أَزُورُ

وَلا هُـــبَلًا أَزُورُ وَكَـــان ربًـــا لَنَـــا فِـــي الـــدَّهْرِ إِذْ حلْمِـــي صَـــغِيرُ

ولذا نرى ابن الكلبي يوثق هذه الفكرة ، ويؤكد هذا المذهب ، حيث كانت قريش تقول – وهي تطوف بالكعبة – :" واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ،

(١)الأصنام،٢٢/١ ، وانظر: سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي) ، ٩٦/٢ ، الآحاد والمثاني ، أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني ، (ت : ٢٨٧ هـ) ، ٧٦/٢ ، دار الراية – الرياض – ١٤١١ – ١٩٩١ ، ط١، تحقيق : د. باسم فيصل أحمد الجوابرة ، الأغاني ، أبو الفرج الأصبهاني(ت : ٣٥٦هـ) ، ١١٨/٣ ، دار الفكر للطباعة والنشر – لبنان ، تحقيق : علي مهنا وسمير جابر ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، (ت : ٩٤٢هـ) ، ١٨٤/٢ ، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٤هـ ، ط١ ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، (ت : ١٠٩٣هـ) ، ٢١٠/٧ ،دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٨م، ط١، تحقيق : محمد نبيل طريفي/اميل بديع اليعقوب ، باختلاف يسير في بعض الكلمات .

(٢) زيد بن عمرو بن نفيل العدوي ، ابن عم عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ووالد سعيد بن زيد أحد العشرة ، قال ابنه يعني سعيدا للنبي صلى الله عليه وسلم : كان كما رأيت وكما بلغك فاستغفر له ، قال : نعم فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده ، وأخرج الواقدي من طريق عامر بن ربيعة عن زيد بن عمرو أنه كان يقول : أنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل ثم من ولد عبد المطلب ولا أراني أدركه ، وأنا اؤمن به وأصدقه واشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مدة ورأيته فاقرأه مني السلام .... الحديث ، وفيه : فرد عليه السلام وترحم عليه، وقال : قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا ، تهذيب التهذيب ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، ٣٦٣/٣-٣٦٤ ، دار الفكر – بيروت – ١٤٠٤ – ١٩٨٤ ، ط١ ، الإصابة في تمييز الصحابة ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، ٦١٣/٢ دار الجيل – بيروت – ١٤١٢ – ١٩٩٢ ، ط١ ، تحقيق : علي محمد البجاوي.

فإنهن الغرانيق العلى[١] ، وإن شفاعتهن لترتجى ، كانوا يقولون : بنات الله وهن يشفعن إليه ، فلما بعث الله رسوله أنزل عليه :

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾[٢]"[٣]

نلاحظ أن كنايتهم– مع بطلانها – دلت على المكنى عنه (الله) من خلال دلالة المكنى به على صفة واحدة (أبو بنات) ، والبلاغيون يشترطون في هذا النوع من الكناية أن تكون الصفة مختصة بالموصوف لا تتعداه إلى غيره .

وعلى ذلك نرى أن الانزياح الاستبدالي متمثلًا في الأسلوب الكنائي قد أفاد وأفاض ، وفكَّ طلاسم العقيدة الوثنية الشركية السافرة ، وكأن عقولهم قد لفحتها شمس الهاجرة ، ولست أراهم يعبدون سوى الأوهام ... لا الأصنام .

وقد تعددت عندهم الكنايات عن صفة ، واختلفت الصفات المكنى عنها بحسب شعورهم ، وحالاتهم النفسية ، فكنوا عن الخضوع والإذعان والتسليم على نحو ما نجد في تلبية قيس عيلان[٤] :

أَتَتْـــــــكَ قَـــــــيْسُ عَـــــــيْلَان

(١) كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة عند مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم فنعس ، فقال : ' أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلى ، عندها الشفاعة ترتجى ' ، فلما سمع كفار مكة أن لآلهتهم شفاعة فرحوا ، ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى) [طه : ١١٤] ، فذلك قوله سبحانه : (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) ، تفسير مقاتل بن سليمان ، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي ، (ت : ١٥٠هـ) ، ٣٨٧/٢ ، دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت – ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م ، ط١، تحقيق : أحمد فريد ، الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري ، (ت : ٢٣٠هـ)،٢٠٥/١ ، دار صادر – بيروت.

(٢) سورة النجم : آية : ١٩–٢١ .

(٣) الأصنام ، ١/ ١٩ ، معجم البلدان ، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله ، (ت : ٦٢٦ هـ) ،١١٦/٤ ، دار الفكر–بيروت .

(٤)الأزمنة ، ١/ ٣٩ ، تاريخ اليعقوبي ، ١/ ٢٥٥ .

رِجَالُهَـــــــــا وَالرُّكْبَـــــــــان

بِشَـــــــــيْخِهَا وَالولْـــــــــدَان

مَذَلَّلَـــــــــةً لِلـــــــــدَّيَّان

وهي كناية قريبة واضحة عن الإذعان والامتثال والتسليم ، وهي كناية حسنة ضمت في طياتها فائدة العبارة ولطف الإشارة ، وتمثلت فيها كل معاني الإذعان ، ويوحي أسلوب الكناية بأنهم قد أشربوا في قلوبهم الصنم ، وكأن هذا الصنم سلطان قاهر ومتصرف قادر ، يحميهم من الأخطار ويدفع عنهم الأضرار ؛ إذ جاءوا جماعاتٍ ، ولبوا زرافاتٍ ، يتعجلون خطاهم ، ويبتغون مناهم ، ولعل كلمة " مذللة " تختزل الكثير من المعاني التي تدور حول التسليم المطلق .

كما نجد هذا المعنى أيضا في تلبية ربيعة[١] لمُحَرِّق[٢] :

لَبَّيْـــــكَ اللَّهُـــــمَّ لَبَّيْـــــكْ

لَبَّيْـــــكَ عَـــــنْ رَبِيعَـــــةْ

سَـــــامِعَةً لِرَبِّهَـــــا مُطِيعَـــــةْ

فالسمع والطاعة ديدن ربيعة ، وكأنها قد أعطت عليهما البيعة ، ولا يمكن بحال أن تكون هذه الطاعة العمياء خبط عشواء ، إن الجاهلي أحسَّ بقوةٍ ما ، هذه القوة مهيمنة ذات سلطان ، وقد حاول العربي الجاهلي استرضاء هذه القوة خوفًا أو طمعًا ، رغبةً أو فزعا، فتقرَّب وتوسل ، ولبّى وتبتل ، وخضع وأذعن ، ووضع الراية وسلَّم .

(١) تاريخ اليعقوبي ، ١/ ٢٥٦ .

(٢) كان المحرق لبكر بن وائل وسائر ربيعة ، وكانوا قد جعلوا في كل حى من ربيعة له ولدا ، وكان سدنته آل الاسود العجليون ، المحبر ٣١٧/١ ، معجم البلدان ، ٦١/٥ ، جمهرة أنساب العرب ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت : ٤٥٦ هـ) ،٤٩٣/٢ ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م،ط٣ .

وقد عبرت الكناية عن هذا الإذعان مصحوبًا بالدليل والبرهان ، فالسمع والطاعة لازمان من لوازم هذا الخضوع والتسليم .

وعلى نفس المنوال نجد معنى التسليم في تلبية[١]اليمن لنَسْر وذرَيح[٢]:

عَـــــادُ إِلَيْـــــكَ عَانِيَـــــةْ[٣]

عِبَـــــــــادُكَ اليَمَانِيَـــــــــةْ

كَيْمَـــــا نَحُـــــجُّ الثَّانِيَـــــةْ

فهم يُقرون بالخضوع ، وإن شئت فقل بالخنوع ، فكلمة "عانية " في دلالتها اللغوية تعني الخضوع لحق أو غيره ، ولست أراه سوى الإذعان للمجهول والخوف منه ، وكأنهم يتحاشون هذا المجهول بالتسليم ، وهي كناية قريبة واضحة ، لم تحتج إلى إعمال عقل ، وقرب الكناية يوحي من طرفٍ خفي بسرعة امتثالهم ؛ لِوَجَلٍ في قلوبهم ، ووَهَنٍ في عقولهم.

وكما كنّى العرب في الجاهلية عن التسليم والإذعان، كنوا كذلك عن تحملهم المشاق ، وتخطيهم الصعاب للوقوف على الأعتاب ، لنيل الرضا والفوز بالثواب .

ونجد هذا المعنى جليًّا في تلبية تميم[٤]:

لَبَّيْـــــكَ اللَّهُـــــمَّ لَبَّيْـــــكْ

(١) الأزمنة ، ٤١/١ ، انظر: تفسير مقاتل بن سليمان٢/ ٣٨٢ ، الأصنام، ٧/١ ، المحبر ، ٧/١ ، معجم مقاييس اللغة ، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، (ت : ٣٩٥هـ) ،١٤٧/٤ ، دار الجيل – بيروت – لبنان – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م،ط٢، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، (ت : ٧٥١ هـ) ، ٢١١/٢ ، دار المعرفة – بيروت – ١٣٩٥ – ١٩٧٥ ،ط٢،تحقيق : محمد حامد الفقي .

(٢) كان نسر لحمير، تنسكه وتعظمه وتدين له ، وذريح لكندة بالنجير من اليمن ناحية حضر موت، المحبر ٣١٧/١ ، انظر : الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (ت : ٦٧١ هـ) ، ٣٠٩/١٨ ، دار الشعب–القاهرة .

(٣) عنوت لك ، خضعت لك وأطعتك ، لسان العرب ، ١٠١/١٥ ، مادة : (عنا) .

(٤) تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٥/١ .

لَبَّيْـــكَ عَـــنْ تَمِـــيمٍ قَـــدْ تَرَاهَـــا

قَـــــدْ أَخْلَقَـــــتْ أَثْوَابَهَـــــا

وَأَثْـــــوابَ مَـــــنْ وَرَاءهَـــــا

وَأَخْلَصَـــــتْ لِرَبِّهَـــــا دُعَاءَهَـــــا

فالصعاب تهون ، وليكن ما يكون ، وإن ضاق العيش ، وأُغلقت الأبواب ، وأُخلقت الأثواب ؛ فكل شيء يسير ، وضيق العيش لا يضير .

ولعلنا نقف على شيء من الإخلاص في هذه التلبية ، وكأننا نقف على أعتاب ثنائية " الدنيا والدين " فالدين عندهم أصل ، فعل لا قول ، وما عسرات الدنيا سوى غمرات سوف تنجلي ، والذي يشي بأصالة الدين عندهم هو دخول همزة التعدية على كلمة (خلق) فقالوا : " أخلقت " وكأنهم افتعلوا ذلك فيما يشبه الزهد عند الزُّهاد .

لقد كان للكناية دور بارز في إظهار هذه القيمة الدينية حيث أبرزت المعقول في صورة المحسوس فزادته وضوحًا وتثبيتًا في النفس .

ومن الكنايات الدالة على تحمل المشاق ، ما ورد في تلبية جرهم[١] :

وَاللهِ لَـــوْلَاكَ أَنْـــتَ مَـــا حَجَجْنَـــا

مَكَّـــــةَ وَالبَيْـــــتَ وَلا عَجَجْنَـــــا[٢]

وَلَا تَصَـــــــدَّقْنَا وَلَا ثَجَجْنَـــــــا[٣]

عَلَـــى قِـــلاصٍ مُرْهَفَـــاتٍ هُجْنَـــا[٤]

يَقْطَعْـــنَ سَـــهْلًا تَـــارَةً وَحَزْنَـــا

(١) الأزمنة ، ٤١/١ .

(٢) العج : رفع الصوت بالتلبية ، لسان العرب ، ٣١٨/٢ ، مادة : (عجج) .

(٣) الثج : صب الدم ، وسيلان دماء الهدي ، يعني الذبح ، لسان العرب ، ٣١٨/٢ ، مادة : (ثجج).

(٤) الهجان من الإبل : البيض الكرام ، لسان العرب ، ٤٣٢/١٣ ، مادة : (هجن) .

إن قبيلة جرهم تقطع المسافات ، وتتحمل الصعاب ، من أجل الوصول إلى معبودهم ، مع أن خيولهم لا تساعدهم على ذلك ، يقطعون المنبسط من الأرض وما غلظ منها وارتفع ، مما يزيد من مشقتهم في سيرهم ، ولكنهم مع ذلك يستسهلون الصعب من أجل الرب ، وقد أشرقت الكناية في هذه التلبية ، حيث عبرت عن المعقول في صورة المحسوس الذي التقطت له صورًا متعددة وهو ثقيل الحركة ، يمشي الهويني ، يصعد مرتفعات ، فأي مشقة تلك الحاصلة ؟ إن الكناية وضَّحت وأفصحت ، وأكدت وثبتت .

ومن الكنايات التي اجتمع فيها الشوق والشُّقّة ، واللهفة والمشقة ، تلبية مذحج[1]ليغوث[2] :

إِلَيْكَ يَا رَبَّ الجَلَالِ وَالحَرَمْ

وَالحَجَر الأَسْودِ وَالشَّهْرِ الأَصَمْ

جِئْنَاكَ نَدْعُوكَ بِمَاءٍ وَهلُمْ[3]

نُكَابِدْ العَصْرَ وَلَيْلًا مُدْلَهِمْ

ففي قولهم : " جئناك ندعوك بماء وهلم " كناية عن مدى تشوقهم ولهفتهم للقاء ربهم ، ولكن المكابدة حاضرة ، والمعاناة ماثلة ، فسيرهم متواصل مستمر ، يواصلون

(١) الأزمنة ، ٤٢/١ .

(٢) كان يغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير، وقيل : هي أسماء رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح ، وقيل : من أولاد آدم عليه السلام ماتوا فقال ابليس : لمن بعدهم لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون اليهم وتتبركون بهم ففعلوا ، فلما مات أولئك قال لمن بعدهم : إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم ، وقيل : كان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، أبي السعود محمد بن محمد العمادي ، (ت : ٩٥١هـ) ٧٠/٩، دار إحياء التراث العربي– بيروت ، انظر : الجامع لأحكام القرآن ، ١٨/ ٣٠٩ .

(٣) تدل على الشوق للوصول بأسرع ما يستطيعون ، دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٨٤/٢ .

الليل والنهار ، من أجل إرضاء غزيزة البقاء لديهم التي تدفعهم إلى تحمل التعب ، وتقبل النصب ، لسد فراغهم الروحي واستقرارهم النفسي .

وقد أدّت كل الكنايات السابقة دورها في صورة بديعة ، أزالت الغموض ، وفكّت الجمود ، وأبرزت الحالات النفسية في صور حسية ، فضلًا عن تأكيدها المعاني وتثبيتها في النفس .

ومن المعاني التي عبر عنها العربي على سبيل الكناية معنى الحاجة والافتقار، على نحو ما نجد في تلبية بكر بن وائل لمحرّق[١] :

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكْ

لَبَّيْكَ حَقًّا حَقًّا

تَعَبُّدًا وَرِقًّا

أَتَيْنَاكَ لِلمَياحَةْ[٢]

وَلَمْ نَأْتِ لِلرَقَاحَةْ[٣]

ففي قولهم " أتيناك للمياحة " يدل على باعث التعبد لديهم ، وهو طلب " العطية " ، فلئن كان التعبد وازعًا نفسيًا لسد الفراغ الروحي ؛ فلا مانع من كونه دافعًا حسيًا لسد الخواء الجسدي .

وقبيلة بكر إذ تطلب فهي تطلب بلطف وبراعة ، وهذا هو سر العدول إلى الكناية ؛ فمن بلاغتها أنها تصل إلى المراد المطلوب بطريق التلميح لا التصريح ، فينتقل الذهن من دالّة إلى مدلول ، ويتحقق التناسب عن طريق هذا العدول ، وإن كان المستجدى جمادًا ، لا حول له ولا طول .

---

(١) الأزمنة ، ٤١/١ .

(٢) امتاح فلان فلانا : إذا أتاه يطلب فضله ، لسان العرب ، ٦٠٩/٢ ، مادة : (ميح) .

(٣) الرقاحة : الكسب والتجارة ، لسان العرب ، ٤٥١/٢ ، مادة : (رقح) .

ومـن كنايـاتهم عـن ذات المعنـى السـابق – الحاجـة والأفتقـار – مـا ورد في تلبية [١] بني النمر :

لَبَّيْـــكَ يَـــا مُعْطِـــيَ الأَمـــرْ

لَبَّيْـــكَ عَـــنْ بَنِـــي النَّمِـــر

جِئْنَـــاكَ فِـــي العَـــامِ الزَّمِـــر [٢]

نَأْمَـــــلُ غَيْثًـــــا يَنْهَمِـــــر

يَطْـــــرُقُ بِالسَّـــــيْلِ الخَمِـــــرْ

فقولهم : " جئناك في العام الزَّمر" كناية عن القحط الحالّ ، الذي يقتضي الطلب والسؤال ؛ عساهم يظفرون بنوال ، وليس بمستغرب أن تكون حالتهم الاجتماعية والاقتصادية المتردية باعثًا من بواعث تدينهم ، فصار المعبود رمزًا للخصوبة في العام الزمر ، وهم يستمطرونه الماء المنهمر ، إذًا فطبيعة الحياة الجافة دفعتهم دفعًا أن يلوذوا بمأمن ، وأن يستظلوا من لفح الهاجرة بمكمن ، وأن يستنجدوا بحامٍ ، ولو كان من الأصنام !!

إن الفاقة لا ترحم ، ومظاهر الاحتياج لا تُكتم ، وأعاصير الجوع لا ترضى بغير الغصن الرطيب ، لذلك فهم يُؤمِّلون أن يكون لهم من العطاء نصيب .

ومن المعاني التي تقرب بها الجاهليون إلى آلهتهم معنى " الصلاح والاستقامة " ، فهي من المفاخر والمآثر التي يتودَّدون بها إليهم ، من ذلك ما ورد في تلبية[٣] ثقيف وكانت للَّات :

لَبَّيْـــــكَ اللَّهُـــــمَّ لَبَّيـــــكْ

(١) زمر الشيء زمرا قل ، الأفعال ، ٩٢/٢ ، مادة : (زمر) .

(٢) رسالة الغفران ، ٢٥٠/١ .

(٣) دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٤٧/٢ .

لَبَّيْـــــكَ كَفَـــــى بِبَيْتِنَـــــا بَنِيَّـــــهْ

لَـــــيْسَ بِمَهْجُـــــورٍ وَلا بَلِيَّـــــةْ

لَكِنَّـــــهُ مِـــــنْ تُرْبَـــــةٍ زَكِيَّـــــةْ

أَرْبَابُـــــهُ مِـــــنْ صَـــــالِحِي البَرِيَّـــــةْ

ففي قولهم " أربابه من صالحي البرية " كناية عن استقامتهم ، وعلو هامتهم ، والاستقامة والصلاح موجودان في كل نفسٍ بشرية ، أودعهما الله سبحانه وتعالى وديعته ، ويسر لكل نفس سُبُلَ غيّها وهُدَاها ، وألهمها فجورها وتقواها ، وكأننا أمام ثنائية الخير والشر ، تلك التي تتحكم في تشكيل الشخصية ، وتحديد الهُويّة .

ويبدو أن العربي في الجاهلية قد فَطِن إلى معنى الصلاح ، واتخذه وسيلة للنجاح ، وهو إذ ينظر في الكون بروعته وجلاله يدرك بحسه وعقله أن للكون مُدَّبر ، لابد أن يُقبل عليه ولا يُدْبر ، غير أنه أخطأ الوجهة ، وضلّ الطريق ، وضاق به السبيل ، فهداه عقله الآفن إلى عبادة الحجارة في كل وادٍ ، ومن يضلل الله فما له من هادٍ .

إذًا فهم يعتقدون في أنفسهم الاستقامة والصلاح ، وهو ما أفادته الكناية عن طريق الانزياح .

ومن الكنايات الدالة على معنى الاستقامة والصلاح تلبية[١] حِمْيَر لنَسْر:

لَبَّيْـــــكَ اللَّهُـــــمَّ لَبَّيـــــكْ

عَـــــنِ المُلُـــــوكِ الأَقْـــــوَالْ

ذَوي النُّهَـــــــى وَالأَحْـــــــلَامْ

وَالوَاصِـــــــلِينَ الأَرْحَـــــــامْ

(١) الأزمنة ، ٤١/١ .

لَا يَقْرَبُـــــــــونَ الآثَـــــــــامْ

تَنَزُّهًـــــــــا وَإِسْـــــــــلامْ

فقولهم " لا يقربون الآثام " كناية عن الاستقامة ، وهي كناية قريبة واضحة ، وظاهر الكلام يدل على الالتزام ، ولكنه التزام كانتظام الفوضى أو فوضى الانتظام!

وقد أبرزت الكناية معنى الصلاح والاستقامة والالتزام وكلها معانٍ مجردة – في صورة محسوسة وبنية ملموسة فأوضحت وأبانت ، ويسَّرت وألانت ، كما أنها جعلت الاستقامة تزخر بالحياة وتموج بالحركة .

ومن التلبيات التي حملت مع الاستقامة تلبية همدان[١] ليعوق وسواع[٢] ونَسْر :

لَبَّيْـــكَ مَـــعَ كُـــلِّ قَبِيـــلٍ لَبُّـــوكْ

هَمْـــدَان أَبْنَـــاء المُلُـــوك تَـــدْعُوكْ

فَاسْـمَعْ دُعَاءَهَـا تَقِـي جَمِيـعَ المُلُـوكْ

قَـــدْ تَرَكُـــوا الأَوْثَـــانَ ثُـــمَّ انْتَـــابُوكْ

لَسْـــنَا كَقَـــومٍ جَهِلُـــوا وَعَـــادُوكْ

فقد جاء قولهم " قد تركوا الأوثان ثم انتابوك " كناية عن اهتدائِهم !

أمرهم عجيب ، وفكرهم غريب ، لسان حالهم مخالفٌ لحالهم ، فكانوا كمن قال: وأدري أنني لاهٍ ، وذنبي أنني أدري ، يتعبدون ليعوق ونسرا وسواع ويخاطبون واحدًا تركوا من أجله الأوثان ، فمن يخاطبون ؟ ولمن يتوجهون ؟

ويبدو أنها فكرة الإله الرمز ؛ لأن العرب كانوا أهل بداهة ونباهة ، وفكرة الدين

(١) الأزمنة ،٤٢/١ ، رسالة الغفران ، ١/ ٢٥١ ، مناقب الأسد الغالب ، ١٨/١ .

(٢) سواع : اسم صنم في زمن نوح فغرقه الطوفان ودفنه ، فاستثاره إبليس لأهل الجاهلية فكانوا يعبدونه من دون الله عز وجل ، كتاب العين ،٢٠٢/٢ .

فكرة فطرية ، وهم – فيما يبدو لي – قد أغفلوا الأسباب ، فأُغلقت دونهم الأبواب ، ولم يظفروا إلا بالسَّراب .

وأعجب ما في هذه الكناية جمعها بين متضادين ، فهم يتقربون إلى صنم بترك الأصنام ، فكانوا كمن رام الجنة بأكل المال الحرام .

وعلى النهج السابق كثرت الكناية عن صفة في تلبيات العرب في الجاهلية ، مما لا يتسع المقام لذكره(١)

وقد وردت الكناية عن نسبة في تلبيات العرب في الجاهلية ، من ذلك ما ورد في تلبية(٢)مذحج ليغوث:

إِلَيْـــكَ يَـــا رَبَّ الجَـــلالِ وَالحَـــرَمْ

وَالحَجَـــرِ الأَسْـــودِ وَالشَّـــهْرِ الأَصَـــمْ

نَقْطَـــعُ مِـــنْ بَـــيْنِ جِبَـــالٍ وَسَـــلَمْ

وَهَـــولِ رَعْـــدٍ وَبُـــروقٍ كَالضَّـــرِمْ(٣)

وَالعِـــيسُ يَحْمِلْـــنَ جَـــلالًا وَكَـــرَمْ

ففي قولهم : " والعيس يحملن جلالًا وكرم " كناية عن نسبة الجلال والكرم لهم، حيث إنهم لم ينسبوا الجلال والكرم لأنفسهم مباشرة وإنما نسبوها إلى ظهور العيس ، وهي لا يصح أن تنسب لها ، الأمر الذي يعني بداهة نسبتها إليهم وارتكازها عليهم .

والسر في العدول في هذا النوع من الكناية هو المبالغة في كمال هذه الصفات فيهم.

---

(١) انظر : تلبية ثقيف : لبيك كفى بيتنا بنيه – ليس بمهجور ولا بلية كناية عن العمران ،
وتلبية هذيل : لبيك عن هذيل أو لجت بليل – تعدو بها ركائب إبل وضِل كناية عن كثرة العتاد ،
وتلبية اليمن : أتيناك للنصاحة كناية عن التوبة
وتلبية الأزد : لبيك ، لم نأتك للمياحة – ولكن جئناك للفصاحة كناية عن التوبة والندم

(٢) الأزمنة ، ٤٢/١ .

(٣) ضرمت النار وتضرمت ، واضطرمت : اشتعلت والتهبت ، لسان العرب ، ٣٥٤/١٢ ، مادة :(ضرم)

ومن ذلك أيضًا ما ورد في تلبية النخع[1]:

لَبَّيْـــــكَ رَبَّ الأَرْضِ والسَّـــــمَاءْ

وَخَـــالِقَ الخَلْـــقِ وَمُجْـــزِي المَـــاءْ

مُعَصَّـــــبٌ بِالمَجْـــــدِ وَالسَّـــــنَاءْ

فقد نسبوا المجد والثناء للعصابة التي يتعصب بها ربهم ، أو للتاج الموضوع فوق رأسه ، والمجد والسناء لا يصح نسبتهم إلى العصابة ، مما يعني عقلًا أن المراد نسبتهما إلى إلههم ، وقد لعب الانزياح عن طريق الكناية دورًا هامًا في إبراز هذه المبالغة وهذا الادعاء.

وبعد هذا العرض لصور الكناية المختلفة في تلبيات العرب في الجاهلية نلاحظ الآتي:

- لم يعمد العربي الجاهلي إلى التعمية أو الغموض من خلال إيثاره الكناية ، وإنما اتخذ هذا النوع من الانزياح وسيلة تعبيريه للكشف خبايا النفس ، وما يعتمل في الصدر .
- لم تقتصر الكناية في تلبياتهم على نوع واحد ، وإنما وردت بأنواعها الثلاثة ، كناية عن صفة وعن موصوف ، وعن نسبة .
- دارت الكناية عن صفة على ألسنتهم بكثرة ، وحامت حول معاني الخضوع والإذعان، وتحملهم المشاق والصعاب ، والحاجة والفاقة ، والصلاح والاستقامة .
- تعاونت الكناية مع غيرها من الصور البيانية كالاستعارة والتشبيه ؛ فكوَّنت صورة كلية أضفت الحركة والحيوية على نصوص التلبية .
- كانت الكناية أكثر مظاهر الانزياح الاستبدالي ورودًا في تلبيات العرب ، وقد اعتمدوا عليها لتحقيق أغراضهم .

(١) الأزمنة ، ٤٣/١ .

المطلب الثالث : الانزياح المعجمي

لكل شخص في الحياة ذوقه وذائقته الخاصة ، التي يستسيغ بها الأشياء أو يرفضها ، كما أن لكل إنسان وجهة يسلكها ، ودربًا يسير فيه ، وسمتًا خاصًا به ، فالبعض يتسم بالهدوء والسكون ، والبعض يستلذُّ الصخب ويغرم به ، ولولا اختلاف الأذواق !

وأهل اللغة بحكم طبعهم البشري يستحسنون منهجًا معينًا ، ويستجيدون أسلوبا خاصًا ، وأهل الأدب والصنعة تستهويهم الأساليب ، تأخذ منهم بالتلابيب ، فيؤثرون مقالًا على مقال ويفضلون كلامًا على كلام ، ولا ملام !

وكل ما سبق داخل في الانزياح بمفهومه الواسع العام ، فإذا ما آثر الأديب كلمات بعينها دون غيرها كان انزياحًا معجميًا ، على الرغم من أن الكثير من الألفاظ تلتقي في بعض دلالاتها ، إلا أن بعضها أو إحداها يقع عليه الاختيار ، ليحظى بهذا الإيثار .

وهنا يأتي التساؤل : لماذا آثر الكاتب لفظًا على آخر ؟ ولماذا أكثر من استخدام أسلوب دون غيره ؟ فإن جاءت الإجابة موضوعية منطقية كان انزياحًا استبداليًا ، وإلا فما جاء لا يعدو أن يكون عفو الخاطر ، وكفى الله المؤمنين شر المخاطر .

وعلى ذلك " فالمعجم الذي يستخدمه الكاتب أو الشاعر هو من أبرز الخواص الأسلوبية الدالة عليه ، والمبينة عن سر صناعة الإنشاء عنده ، حيث يقوم الكاتب بتحويل تجربته من خلال الثروة اللفظية الخاصة به ، ثم يؤدي فحصها إلى استبانة واحد من أهم الملامح المميزة للأسلوب ، فما المفردات إلا الخلايا الحية التي يتحكم المنشئ في تخليقها وتنشيط تفاعلاتها على نحو يتحقق به للنص كينونته المتميزة في

سياق النصوص ، وللمنشئ تفرده بين المنشئين " [١]

وبالتالي فكل اختيار لبنيه لغوية أو أسلوب دون غيره يُعَدُّ من الانزياح المعجمي الاستبدالي ؛ لأن المعجم اللغوي للكاتب إنما يكون من تلك الألفاظ التي انتقاها ، أو الأساليب التي تبنّاها .

وعلى ذلك فإن درس الانزياح المعجمي لا يقتصر على الحصر ، بل يتعدى الحصر للوقوف على الدوافع والبواعث التي دفعت الكاتب لاختيار طريقة دون سواها، ومنهجية آثر ألا يتعدَّاها .

إن الطريقة الأسلوبية الواحدة في تلبيات العرب في الجاهلية تُعَدُّ طريقةً مميزة عن غيرها ، ويبدو أن هذا النهج الأسلوبي عندهم أثير ، وبالتقليد والمعارضة جدير ، ولكن اللافت للنظر هو تكرار بعض الألفاظ أو الأساليب على نطاق واسع في تلبياتهم ، في الوقت الذي يمكن أن تحل غيرها محلها ، فتتحول إلى ظاهرة أسلوبية ؛ يستطيع السامع أن يعزوها إليهم ، ويقصر نسبتها عليهم .

من ذلك أنهم يتوجهون بالتلبية إلى (الله) وهذا هو الغالب الأعم في تلبياتهم على اختلاف توجُّهاتهم ، فتراهم يقولون : " لبيك اللَّهم لبيك " ، ثم هم يتضرعون لـ (الرب) ، أو يتوسلون لـ (رب الأرباب) أو (رب الأرض والسماء) أو لـ (رب اللات والعزى) أو (رب الشعرى) ، وتارة أخرى تجدهم يتقربون لـ (خالق الخلق) أو (الغافر) أو (الهادي) أو (الواحد) أو (القهار) أو (الصمد) أو غير ذلك من الألفاظ التي استخدموها في تلبياتهم .

إن العرب في الجاهلية كانوا يؤمنون بالله إلهًا يسمو فوق آلهتهم التي يتقربون لها ويتوسلون بها ، ولكنهم في الوقت ذاته يشركونها مع الله تبارك وتعالى ؛ الأمر الذي يعني أن هذه اللفظة في ذاتها قد انزاحت عن معناها الأصلي وهو المعبود

(١) ينظر : في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية ، د/ سعيد مصلوح ، صـ ٨٥ ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، مصر ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م ، ط١ .

الأوحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، إلى معنى المعبود مع غيره ! ولستُ أراه سوى انحراف عن الفطرة أدّى بدوره لانحرافٍ عن الفطنة .

لقد اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن يتعرف الإنسانُ به عليه ، وأودع هذه الفطرة السليمة في كل النفوس البشرية ، ولعل هذا هو قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " من يُولَدُ يُولَدُ على هذه الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ كما تَنْتِجُونَ الْإِبِلَ فَهَلْ تَجِدُونَ فيها جَدْعَاءَ حتى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا قالوا يا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ من يَمُوتُ صَغِيرًا قال الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ " (١)

يفهم من هذا أن المسلم الذي يولد لأبوين مسلمين لا يقال في حقه إنه مقلد لهما في عقيدتهما ؛ لأنه باقٍ على أصل فطرته ، وكل ما في الأمر أنه استمرا مسلمًا ، لأن أبويه لم يفسدا هذه الفطرة التي فطره الله عليها ، بعكس من تهوَّدَ أو تنصَّر أو تمجَّس أو أشرك ، فهؤلاء هم المقلدون .

ولما انحرفت فطرتهم وشَذّت ؛ انحرفت دَوَالّهم ومدلولاتهم ونَدّت ، فأصبحوا " يسمون الأصنام التي يعبدونها آلهة ، ويسمون الواحدة إلهًا "(٢)

وعلى هذا فاللات والعزى ومناة وغيرها آلهة ، يُفهم من هذا أن كلمة (الله) كانت موجودة ودالَّةً على (المعبود) ، ولكن الانزياح العقديّ أفضى إلى انزياح لغوي في مدلول الكلمة عندهم .

إذًا فالعقيدة عندهم هي الأساس الفاعل في هذا الانزياح ؛ يدل على ذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أقَرَّ بالأسلوب نفسه ، وبالصيغة ذاتها (لبيك اللهم لبيك) لما اختلفت العقيدة وتحولت القلوب .

ومهما يكن من أمر الأصنام التي يذكرونها في تلبياتهم فإنهم يشركونها

(١) صحيح مسلم ، ٢٠٤٨/٤ ، برقم ٢٦٥٨ .

(٢) كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ٨٢/١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٣م ، ط١ ، تحقيق : د/عبد الحميد هنداوي .

مع الله ، كما في تلبية قريش [١]:

لَبَّيْـــــكَ اللَّهُـــــمَّ لَبَّيـــــكْ

لَبَّيْـــــكَ لَا شَـــــرِيكَ لَـــــكْ

إِلَّا شَـــــرِيكٌ هُـــــو لَـــــكْ

وهم أحيانًا يصورونها في منزلة دون منزلة الألوهية ، كما في تلبية ثقيف[٢] :

لَبَّيْـــــكَ اللَّهُـــــمَّ لَبَّيـــــكْ

هَـــذِي ثَقِيـــفٌ قَـــدْ أَتَوكَـــا

وَخَلَّفُـــوا أَوثَـــانَهُم وَعَظَّمُوكَـــا

عُـــزَّاهُمْ والـــلَّاتُ فِـــي يَـــدِيْكَا

وهذه التعبيرات – على اختلافها – تجمع التشريك بين الله والأصنام ، وما هو إلا قصور في الأحلام ! فهل يمكن التسوية بين الحقائق والأوهام ؟

إن الانزياح في المعنى هو الذي أدّى إلى انزياح في اللفظ ، أو الانحراف في البنية العميقة هو الذي أفضى إلى انحراف في البنية السطحية وليس العكس ؛ لأن ظاهر الانزياح أن يكون في الدَّال لا في المدلول ، أو في العلَّةِ لا في المعلول ، فتدل الدَّالة الظاهرة على مدلولٍ متوارٍ ، أو معنىً مستعارٍ ، ولأن المعنى هو الذي يكتسي من الألفاظ ما يشاء ؛ تلبست عقيدتهم المنحرفة بما يرضي في نفوسهم الكبر والرياء ، فأشركوا مع الله شركاء ، ووكّلُوا عنه وكلاء ، تعالى سبحانه عما يقولون عُلُوًا كبيرا.

(١) السيرة النبوية ، ٢٠٣/١ ، وانظر : أخبار مكة ، ١٩٤/١، الأزمنة ، ٣٩/١ ، ريب الحديث ، ٢٢٧/٢ ، معرفة الصحابة ، ٢١١٥/٤ ، رسالة الغفران ١ / ٢٥٠ ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ٢٨٥/٣ .

(٢) الأزمنة ، ٣٩/١ ، تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٥/١ .

والمتتبع لذكر اسم " الله " في تلبيات العرب يجدُ خلطًا واضحًا في استخدامه ، وإن شئت فقل : تبادل أدوار أو تداخل أعمال ، فالله إله ، وأصنامهم آلهة ، وما استنكروا شيئًا في الدعوة الإسلامية استنكارهم أن يكون الله واحدًا ، ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[١] ، وهذا الخلط بين إله متخيل وإله مجسَّم هو أعجب العجب ، لأنه مسبب بلا سبب ، وادّعاءٌ بلا سند .

وجملة القول أن العرب في الجاهلية جمعوا بين ثنائية ضدية تتمثل في الإيمان والشرك ، أو الوجود والعدم ، وهو انحرافٌ عقدي استلزم انحرافًا لفظيًا أو أسلوبيًا .

وكما كان حالهم مع كلمة " الله " كان حالهم مع كلمة " الرب " فقد وردت في تلبياتهم مفردة ، ومضافة ، معرفة ومنكرة ، ولكنها لم تخرج عن التشريك ، من ذلك ما ورد في تلبية تميم[٢] :

وَأَخْلَصَـــــتْ لِرَبِّهَـــــا دُعَاءَهَـــــا

وتلبية بني أسد[٣]:

رَبَّنَـــــا أَقْبَلَـــــتْ بَنُـــــو أَسَـــــدْ

تلبية هذيل[٤]:

تَهْوى إِلَـى رَبّ ٍكَرِيمٍ مَاجِدٍ جَمِيلْ

تلبية ربيعة[٥]:

لِـــرَبٍّ مـــا يُعْبَـــدُ فـــي كَنِيسَـــةٍ وَبيعَـــةْ

وَرَبّ كُـــلِّ وَاصِـــلٍ أَو مُظْهـــرِ قَطِيعَـــةْ

(١) سورة ص ، آية ٥ .
(٢) تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٥/١ .
(٣) السابق ، ٢٥٥/١ .
(٤) الأزمنة ، ٤٠/١ ، تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٥/١ .
(٥) الأزمنة ، ٤١/١ .

وقولهم[١]:

لَبَّيْـــــــكَ رَبَّنَـــــــا لَبَّيـــــــكْ

وتلبية [٢]عبد قيس :

لَبَّيْــكَ رَبّ ، فاصْــرِفَنْ عَنَّــا مُضَــرْ

وتلبية[٣]الأزد :

يَـا رَبّ لَـولَا أَنْـت ۘمَـا سَـعَيْنا

وقولهم [٤] :

لَبَّيْـــــــكَ رَبَّ الأَرْبَـــــــابْ

وتلبية [٥]غسان:

لَبَّيْـــــــكَ رَبّ غَسَّـــــــانْ

وفي تلبية[٦] همدان :

لَبَّيْـــــــكَ رَبّ هَمْـــــــدَانْ

وفي تلبية[٧]مذحج :

لَبَّيْــكَ يَــا رَبَّ الجَــلاَلِ وَالحَــرَمْ

(١) تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٦/١ .
(٢) دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٧٥/٢ .
(٣) الأزمنة ، ٤١/١ .
(٤) تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٦/١ .
(٥) السابق ، ٢٥٦/١ .
(٦) رسالة الغفران ، ٢٥١/١ ، مناقب الأسد الغالب ، ١٨/١ .
(٧) الأزمنة ، ٤٢/١ .

وقولهم[١] :

لَبَّيْـــــــــكَ رَبّ الشِّـــــــــعْرَى

رَبّ الـــــــــلَّاتِ والعُـــــــــزَّى

وفي تلبية[٢] النخع :

لَبَّيْـــــكَ رَبّ الأَرْضِ والسَّـــــمَاءِ

وَخَـــالِقَ الخَلْـــقِ ومُجْـــزِي المَـــاءِ

كل هذه التلبيات وغيرها الكثير وردت فيها كلمة رب منزاحة عن معناها الحقيقي ، فالرب " هو الله عز وجل ، وهو ربّ كل شيء أي مالكه ، له الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو المالك ، والسيد ، والمدبر ، والمربي ، والمتمم " [٣] ، وكلمة رب في هذه التلبيات جاءت بمعنى كلمة (الله) ، ولكن الانحراف فيها انحراف عقدي لا انحراف لغوي.

إن تصور العربي الجاهلي للرب لم يكن يختلف كثيرًا عن تصوره لله ، فلم يكن الرب الأوحد ، ولكن يظل مفهوم الألوهية هو الأعلى ، لأن مفهوم (الله) رمزي ، غيبي ، بينما أوحت كلمة الرب في بعض التلبيات بأن المراد منها ذات الصنم المعبود ، وفي البعض الآخر مثّلت بُعْدًا آخر فتطابق المراد منها مع المراد من كلمة (الله) ، وعلى هذا فالرب عندهم أقرب إلى المادية الحسية ، بينما مثلت " الله " المعنوية الغيبية ، وفي كلا اللفظين تمثلت المعاني الشركية ، وبذلك تكون كلمة (الرب) انزاحت عقديًا لا لغويًا انزياحًا عكسيًا ، على نحو ما مّر في كلمة (الله) – تبارك في علاه – .

(١) تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٦/١ .

(٢) الأزمنة ، ٤٣/١ .

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، ٤٥٩/٢ ، دار الهداية ، تحقيق : جماعة من المحققين .

وعلى نفس المنوال في طريقة انزياح (الله – الرب) ، وردت باقي أسماء الله وصفاته ، إلا أنها لم تخلُ من المعاني الشركية ، فقد وردت كلمة الرحمن[١] في تلبية عك والأشعريين[٢] :

نَحُــجُّ للــرَّحْمَنِ بَيْتًــا عَجَبَــا

كما جاءت كلمات الواحد[٣] والقهار[٤] والصمد[٥] في تلبية بني أسد[٦] :

الوَاحِــدُ القَهَّــار وَالــرَّبُ الصَّــمَدْ

وجاءت كلمة الحميد[٧] في تلبية حِمْيَر وهمدان[٨] :

وَأَنْــــتَ رَبُّنَــــا الحَمِيــــدْ

وجاءت كلمة الحكيم[٩] في تلبية كندة وحضر موت[١٠] :

أَنْــــتَ حَكِــــيمٌ فَاتْرُكْــــهْ

(١) الرحمن : الذي وسعت رحمته كل شيء ، وإنما بنيت على فعلان لأن معناه الكثرة ، انظر : لسان العرب ، ٢٣٠/١٢ ، مادة : (رحم) .

(٢) دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٧٣/٢ .

(٣) الواحد : ذو التوحد والوحدانية ، والله الواحد الأوحد ، والتوحيد : الإيمان بالله وحده لا شريك له ، انظر كتاب العين ، ٢٨١/٣ ، مادة : (وحد) .

(٤) القهار : من صفات الله ، والقهر : الغلبة والأخذ من فوق ، وهو الذي قهر خلقه بسلطانه وقدرته ، لسان العرب ، ١٢٠/٥ ، مادة : (قهر) .

(٥) الصمد:السيد ، لأنه يصمد إليه في الحوائج أي يقصد ، مختار الصحاح ،١٥٥/١، مادة :(صمد)

(٦) تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٥/١ .

(٧) الحميد : الحمد نقيض الذل ، يقال : حمدته على فعله ، ومنه المحمدة خلاف المذمة ، لسان العرب ، ١٥٥/٣ ، مادة : (حمد) .

(٨) دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٦٥/٢ .

(٩) الحكيم : من أسماء الله تعالى ، والذكر الحكيم ، القرآن ، لأنه حاكم للناس وعليهم ، المعجم الوسيط (١+٢) ، إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار، ١٩٠/١ ، دار الدعوة ، تحقيق مجمع اللغة العربية ، مادة : (حكم) .

(١٠) تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٦/١ .

وجاءت الكريم[١] في تلبية هذيل[٢]:

تَهْـوى إِلَــى رَبٍّ كَــرِيمٍ مَاجِــدٍ جَمِيــلْ

وجاءت كلمة غافر[٣] وهاد[٤] في تلبية [٥]خزاعة :

فــاغفِرْ فأنــتَ غــافِرٌ وَهَــادْ

وجاءت كلمة خالق[٦] في تلبية[٧] النخع :

وخَــالِقَ الخَلْــقِ ومُجْــزِي المــاءِ

وكل هذه الأسماء والصفات انزاحت عن أصلها بانزياح المدلول لا بالأصالة ، وبانحراف العقيدة لا بانحراف بنياتها اللغوية ، فالمدلول أزاح الدّال على عكس حقيقة الانزياح .

(١) الكريم : الكثير الخير الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه ، وهو اسم جامع لكل ما يحمد ، لسان العرب ، ٥١٠/١٢ ، مادة : (كرم) .

(٢) الأزمنة ، ٤٠/١ ، تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٥/١ .

(٣) الغافر : الساتر ، وغفر الله ذنوبه أي سترها ، وأصل الغفر : التغطية والستر ، لسان العرب ، ٢٥/٥ ، مادة : (غفر) .

(٤) الهادي : هو الذي بصَّرَ عباده ، وعرّفهم طريقه حتى أقروا بربوبيته ، تاج العروس ، ٢٩٣/٤ ، مادة : (هدى) .

(٥)الأزمنة ،١/ ٤٣ .

(٦) الخالق : الموجد على تقدير أوجبته حكمته ، أساس البلاغة ، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري ، ١٧٣/١ ، دار الفكر – ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م ، مادة : (خلق) .

(٧) الأزمنة ، ٤٣/١ .

المَبْحَثُ الثاني :
الانزياح التركيبي

لما كانت اللغة العربية كائنًا حيًا ، وكانت الحياة تدب في أوصالها بنائها ودلالتها ؛ اقتضت حياتها الحركة لا السكون ، شأنها شأن الكائنات الحية في الكون، فتُبْعثُ التراكيب والمفردات بعد موات ، وتنتشي بعد شتات ، وتتحدث بعد سُكات .

ولستُ أظن الانزياح التركيبي في النصوص الأدبية سوى هذه الحركة وهذه الحياة ، وكل حركة لها مدى وصدى ، وكذلك اللغة العربية ، فأما مداها فهو اختلاف البنية اللفظية وتغيير نظامها المعهود ، وأما صداها فهو التئام المعنى وتمامه للوصول إلى الهدف المنشود .

وإذا كان الانزياح الاستبدالي يتخذ من اللفظ في صورته الأولية مطيّة للوصول إلى المعنى ؛ فإن الانزياح التركيبي لا يسلم نفسه إلى المعنى إلا بعد إعمال وإجهاد؛ ذلك أن الشكل السطحي للغة يختلف والبناء الأوَّلي يتفرق ، " وإذا كان النحاة اللغويون قد أقاموا مباحثهم على رعاية الأداء المثالي ، فإن البلاغيين ساروا في اتجاه آخر ؛ حيث أقاموا مباحثهم على أساس انتهاك هذه المثالية ، والعدول عنها في الأداء الفني " [1] ، والعدول هنا لا يعني بالضرورة الخروج على القواعد المعروفة، والمسلَّمات المألوفة ، ولكنه يعني مجرد الخروج عن الأصل الوضعي لهذه البدهيّات لغرض .

وعلى ذلك فإن الأديب حين يخرج عن الأُطُر الموضوعة ، والقوالب المصنوعة؛ فهو لم يفعل ذلك لمجرد المخالفة وإنما يرنو إلى تحقيق هدف " لا يستطيع أن ينجزه من خلال الحدود المعيارية التي وضعها المتحدثون باللغة ، فتلك الحدود تحقق الهدف النفعي ، في حين أن الخروج إلى ما هو هامشي أو ثانوي أو استثنائي يحقق الوظيفة الإبداعية "[2]

(١) البلاغة والأسلوبية ، د/ محمد عبد المطلب ، صـ ٢٦٨ ، مكتبة لبنان ناشرون – الشركة المصرية العالمية للنشر – ١٩٩٤م ، ط١ .

(٢) أسلوبية الانزياح في النص القرآني ، صـ ٩٨ .

المطلب الأول : التقديم والتأخير

يُعَدُّ التقديم والتأخير من المباحث الهامة في الوقوف على محتوى النصوص الأدبية ؛ إذ إنه يعين الناقد على تذوق المعاني الجديدة التي فاجئته من خلال الإخلال بالنسق الطبيعي للجملة ، والتقديم والتأخير من الأمور التي تؤكد سلامة اللغة العربية ، وتنفي عنها الجمود ، وتقر بطواعيتها وسهولة إعادة تشكيلها في مبناها ومن ثم في معناها.

وقد أولى البلاغيون والنحويون هذا الباب عناية خاصة ؛ لما فيه من جمال فريد مسبب عن إتيان الكلام على نسق جديد ، ومخالفة لما هو معروف ، وانتهاك لما هو مألوف .

وظاهرة التقديم والتأخير من أكثر الظواهر تأثيرًا ، ومن ألطفها استخدامًا وتعبيرًا، وهذا الباب " كثير الفوائد ، جَمُّ المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لايزال يفتر لك عن بديعه ، ويفضي بك إلى لطيفه ، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدِّم فيه شيء وحُوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان "[١]

وهذا النوع من الانزياح تخالف فيه الصياغة مقتضى الظاهر الذي شكَّلته دلالاتها الأولى في ذهن المخاطب ؛ لأن التركيب الأوَّلي للصياغة يعتمد على وضع كل عنصر لغوي في موضعه ، فيبدأ المتلقي في استيعاب هذه العناصر وفق ترتيبها، فإذا ما تغيرت الصياغة واختلف الترتيب فإن هذا يلفت انتباه المتلقي ويستوقفه للنظر في دواعي تغيير هذا الترتيب ومسبباته ، فيُفصح النص عن جماله، ويبدأ في تجلياته ، فيصبح النص بفضل ما فيه من انزياح في التركيب والترتيب مجالًا فسيحًا لإعمال الرأي وامتحان الذوق ، فالمتلقي يقف أمام ظاهرة التقديم والتأخير التي تعمل على تحريك العناصر اللغوية في البنية الشكلية ويحاول

(١) دلائل الإعجاز ، صـ ١٠٦ .

استحضار البنية المثالية العميقة من أجل تحقيق التوازن اللفظي والمعنوي[١]

ومعلوم أن الانزياح بطريق التقديم والتأخير لا يكون إلا لغرض مرجو وهدف منشود ، يثري المعنى ، ويخدم المقام ، ولأن العرب في جاهليتهم امتلكوا زمام الفصاحة ؛ فقد أحسنوا استخدام التقديم والتأخير وتوظيفه ، وقد " أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام ، وانقياده لهم ، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق "[٢]

لقد عمد العربي إلى لطف الإشارة ، بتغيير نسق العبارة ، فقَدَّم وأخَّر ، وأومأ وعبّر ، ولمَّح وفسَّر ، لذلك جاءت تلبية العرب في الجاهلية مشتملة على هذه الصورة التعبيرية ، والتركيبة الأسلوبية ، على نحو ما نجد في تلبية ثقيف[٣] للَّات والعزى :

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ

هَذِي ثَقِيفٌ قَدْ أَتوكَا

وَخَلَّفُوا أَوْثَانَهُم وَعَظَّمُوكَا

قَدْ عَظَّمُوا المَالَ وَقَدْ رَجُوكَا

عُزَّاهُم واللَّاتُ فِي يَدِيكَا

دَانَتْ لَكَ الأَصْنَامُ تَعْظِيمًا إِلَيْك

ففي قولهم : " دانت لك الأصنام " تقديمٌ للمتعلق – وهو جار ومجرور – على الفاعل " الأصنام " ، ولعلهم عمدوا إلى هذا التقديم للتنبيه على أهمية المتقدم ، فبدلًا من أن يقولوا : " دانت الأصنام لك " ؛ آثروا هذا التقديم ؛ للتنبيه على أن الإذعان

(١) ينظر : أسلوبية الانزياح في النص القرآني ، صـ ١٦٥

(٢) البرهان في علوم القرآن ، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، ٢٣٣/٣ ، دار إحياء الكتب العربية لعيس الحلبي – ١٣٧٦هـ –١٩٥٧م ، ط١ ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٣) الأزمنة ، ٣٩/١ ، تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٥/١ .

حاصل بلا فاصل ، بصرف النظر عن فاعله ، فكان التنبيه من أول الأمر على أن متعلق الفعل أولى بالتقديم.

ولا يمكن إغفال ملمح آخر لهذا التقديم ، وهو أن تأخير الفاعل أدعي للتشويق لمعرفته والوقوف على ماهيته ، وعلى الرغم من ذلك فالتعلق هو محل الاهتمام لا الأصنام.

وهنا تبرز قيمة التقديم والتأخير من الناحية النفسية ، فالله هو المسيطر السائد، وما سواه فانٍ بائد ، فالذات العليا مهيمنة على عقولهم ، ولكنهم يجهلونها ، فاتخذوا وسيطا ليكون وسيلة للتقرب إليها ، في تسلسل بسيط الحس معَقّد المعنى ، مُلْغز أو يكاد، وأيًا ما كان الأمر فالذات العليا مقدمةً في نفوسهم لقدرها وأهميتها.

إن هذا الانحراف البسيط في بنية الجملة التركيبية أبان عن انحراف كبير في اتجاهاتهم العقدية ؛ لأن المعبود الحسي (الأصنام) يذعن ويدين للمعبود الغيبي (الله) فلم لم يذعنوا هم لله بدون وسائط ؟

وبهذا يكون تحويل اللفظ عن مكانه تمامًا لبيانه ، وإفصاحًا عن عقل الجاهلي العييّ ، وهنا تكمن أهمية الانزياح التركيبي عن طريق التقديم والتأخير .

ومن التلبيات التي لعب فيها الانزياح دورًا بارزًا تلبية تميم[١] :

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكْ

لَبَّيْكَ عَنْ تَمِيمٍ قَدْ تَرَاهَا

قَدْ أَخْلَقَتْ أَثْوابَهَا

وَأَثْوابَ مَنْ وَرَاءَهَا

وَأَخْلَصَتْ لِرَبِّهَا دُعَاءَهَا

ففي قولهم : " وأخلصت لربها دعاءها " تقديم للمتعلق وهو – الجار

(١) تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٥/١ .

والمجرور " –لربها "على المفعول "دعائها "، ومعنى القصر والتخصيص واضحٌ جَلِيٌّ ، فإخلاص الدعاء مقصورٌ على الله لا يتعداه الي سواه ، وهنا تُعَادُ الكرّة التي أثيرت غير مره : إذا كان الدعاء لله خالصًا ؛ فما الأصنام إلا ضرب من الأسقام ، وما التوسل بها الا طيف من الأوهام ، حتى وإن ضحوا بالنفيس ، وقطعوا الفيافي على ظهور العيس .

إن تخصيص الله بالدعاء لا يعدو أن يكون إلا ادّعاء جاد به الشقاء ، وقصر الدعاء على الله قد حقق الفائدة المعنوية المرجوة ، وأبانَ غاية التلبية المتلوة ، ولكن لا تخلو هذه التلبية – في رأيي – من غاية لفظية بتقديم المتعلق على المفعول ، وهي ألا نسير بموسيقى التلبية إلى الأفول ، فالحفاظ على التنغيم ، وإتاحة المجال للترنيم مما يسهم إسهاما مباشرًا في الحفاظ على الحس ، وتحريك خفايا النفس .

والانزياح من خلال التقديم حاضر ، والأسلوب بالنكات البلاغية زاخر ، كالقصر والتخصيص ، والاهتمام بشأن المتقدم والاعتناء به ، والتنبيه على أهميته ، فضلًا عن الحفاظ على التوازن الصوتي .

ومن التراكيب التي أثار الانزياح فيها من خلال التقديم معانيَ بلاغية ، وقيمًا فنية ما ورد في تلبية بني أسد[1] :

لبَّيْـــــكَ اللهُـــــمَّ لبَّيْـــــكْ

رَبَّنـــا أَقْبَلَـــتْ بَنُـــو أَسَـــدْ

أهـــلُ الوفـــاءِ والنـــوال ِوالجَلَـــدْ

فينـــا النَّـــدَى والـــذُّرَى والعَـــدَدْ

والمَـــالُ والبَنُـــونَ فِينَـــا والوَلَـــدْ

ففي قولهم "فينا الندى والذرى والعدد "تقديمٌ للخبر "فينا"–الجار والمجرور –

(١) الأزمنة ، ٤٠/١ ، انظر : تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٥/١ .

علي المبتدأ ، حيث قدموا الخبر أو المسند (فينا) علي المبتدأ أو المسند إليه (الندى والذرى) لإفادة الاختصاص ، فالعطاء الكثير والنوال الوفير فيهم دون سواهم ، فضلًا عن كثرة عددهم الداخلة في هذا التخصيص ، وهذا التخصيص مشعرٌ بأن التعبد هو الغاية ، فهم لم يُقبلوا من أجل السؤال ، ولا لكي يظفروا بالمال، فهم مُنْعِمُون مُنَعَّمون ، يبذلون ولا يألوون ، كثيرو العدد ، وفيرو الولد .

إن انزياح الخبر من مكمنه ، وعدوله عن مأمنه أفاد سيَمهم ، وأفاض شيمهم، وأعاد للأذهان جهلهم ! فالله تبارك وتعالى قد أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وما زالت مواضع الإدراك فيهم ساكنة ، يتقربون لغيره ، ويتوسلون بغيره ، يتناسون فضله، ويتجاهلون نعمه ، فما أقَلّ ما يملكون مع الإكثار ! إن الإنسان لظلوم كفّار .

إن التقديم في هذه التلبية لم يكن مجرد خروج عن المعهود دون داعٍ ، وإنما لمقتضى اقتضاه ، وداعٍ استدعاه ، ولا يمكن إغفال معنى المبالغة أو الإيغال ، فالمتقدم وهو الخبر ليس ككل خبر ، فيه (في) التي تفيد الظرفية ، فكأن الندى مقيم معهم ، موجودٌ في نفوسهم ، متلبسٌ بعقلهم وحسهم . وعلى ذلك يكون التقديم قد أفاد مع المعنى معنى ، وإن اتحدت فيهما صورة المبنى .

وما زالت قيمة الانزياح في أسلوب التقديم والتأخير ماثلة في تلبيات العرب في الجاهلية على نحو ما نجد في تلبية[١]جرهم :

لَبَّيْكَ مَرْهُوبًا وَقَدْ خَرَجْنَا

واللهِ لَوْلَا أَنْتَ مَا حَجَجْنَا

مَكَّةَ والبيتَ وَلَا عَجَجْنَا

ولا انتَجَعْنا فِي قُرىً وَصِحْنَا

نَحْنُ بَنُو قَحْطَانَ حَيْثُ كُنَّا

نَنْحَرُ عِنْدَ المَشْعَرَينِ البُدْنَا

(١) الأزمنة١/ ٤١ .

ففي قولهم: " ننحر عند المشعرين البدنا " تقديم لمتعلق الفعل "عند المشعرين " –وهو ظرف – على المفعول " البدنا " لإفادة التخصيص والقصر ، مما يدل على أهمية المكان الذي تنحر فيه الإبل ، وتقدم فيه القرابين لإلههم المعبود ، الذي تحملوا من أجله وعثاء السفر . فالمشعر أو المشعرين – وهو المعلم الذي يتعبدون عنده – قد قُدِّم لمكانته في نفوسهم ، وكأنه معادلٌ موضوعي لدار المحبوبة التي طالما تغنى بها الشعراء الغزِلون.

ولا شك أن لهذا المكان في نفوسهم مكانة لا تُحَدّ بِحدّ ، ولا تنتهي أسرار قدسيتها بالعَدّ .

فالغرض من التقديم هو التعظيم ، أو هو من باب تقديم الأولى ، فنحر البدن كقربان ، قد يكون في أي مكان ، ولكنهم آثروا تقديم المحبب ، فالذبح في حرم الصنم مشهود للصنم ؛ عله يجود عليهم بشيء من النعم .

وربما يكون التقديم من باب التدرُّج المنطقي ؛ حيث جاء الحدث أولًا مقترنًا بالزمان ، فاتبعوه بذكر المكان لتكتمل البيئة الحاضنة للنحر (زمانية ومكانية) ، ثم يأتي المفعول في قمة الهرم وآخره ، لتكتمل الصورة الكلية من خلال سلسلة متواصلةٍ من البنى اللفظية ، وسواء أصحت هذه الافتراضات أم لم تصح ؛ فذكر المكان عندهم مُلِّح ، لا يرتضي التأخير ؛ إذ لو أخِّر لضاعت بلاغة السياق ، وانعدم في النص الوفاق .

هذا ، وإيثار المحافظة على التوازن الصوتي ، والجرس الموسيقى – في رأيي – من دوافع هذا التقديم ، ولا تعارض في الجمع بين الغرض المعنوي والغرض اللفظيّ في هذه التلبية فكلٌ منهما له دوره في كشف بلاغة النص ، والتعبير عن مكنون النفس .

وعلى نفس المنوال جاءت تلبية[1] قضاعة :

(١) تاريخ اليعقوبي ،٢٥٦/١ .

لَبَّيْـــــكَ عَـــــنْ قُضَـــــاعَةْ

لِرَبِّهَـــــــــــا دَفَّاعَـــــــــــةْ

سَـــــــمَعًا لَـــــــهُ وَطَاعَـــــــةْ

فقولهم : " لربها دفَّاعة " فيه تقديم للخبر " لربها " وهو – جار ومجرور – علي المبتدأ " دفّاعة " ، وهذا التقديم وإن كان فيه نوع من التعمية وعدم الوضوح ؛ فالمُسَلَّم فيه أن غرض التقديم هو قصر الدفع على الله ، كما أنه متقدم وهو مسند على المسند إليه لأهميته ، والاعتناء به ، فتركيز المعنى متوجه الى الخبر المتقدم ، وإن كان في الأصل هو المتمم .

وربما يكون التقديم هنا على سبيل الالزام والوجوب ؛ لأن المبتدأ " دفّاعة " نكرة ، ولا مسوغ للابتداء به سوى أن يتقدم الخبر عليها وهو شبه جملة كما هو الحال في هذه التلبية ، وقد يكون للتقديم باعث جماليّ ، وهو المحافظة على الجرس الموسيقيّ ، والتوازن الصوتيّ .

و من التلبيات التي يبدو فيها أثر الانزياح بالتقديم واضحا تلبية [١]خزاعة لذي الكفين [٢]ومناة :

نَحْـــنُ وَرِثْنَـــا البَيْـــتَ بَعْـــدَ عَـــادْ

وَنَحْـــــنُ مِـــــنْ بَعْـــــدِهِم أَوْتَـــــادْ

فَـــــاغفِرْ فَأَنْـــــتَ غَـــــافِرٌ وَهَـــــادْ

(١) الأزمنة ،١/ ٤٣ .

(٢) لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إلى الطائف بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين صنم من خشب كان لعمرو بن حممة الدوسي ، يهدمه ، وأمره ان يستمد قومه ويوافيه بالطائف ، فخرج سريعا إلى قرية فهدم ذا الكفين ، وجعل يحيي النار فيوجهه ويحرقه ويقول : يا ذا الكفين لست من عبادكا ، ميلادنا أقدم من ميلادكا ، إني حشوت النار في فؤادكا ، سبل الهدى والرشاد، ٦/ ٢١٠

ففي قولهم " ونحن من بعدهم أوتاد " تقديم للمتعلق " من بعدهم " وهو الجار والمجرور على الخبر" أوتاد " وهذا التقديم يفيد تخصيصهم بتلك الصفة ، فَهُم خَلَفُهم في القوة ، تلال شامخات وجبال راسيات ، بل هم الأوتاد الذين يسكنون إرم، وينعمون بالنعم.

وتقديم الفاعل في قولهم " نحن ورثنا البيت " يفيد هذا القصد ، ويعمد إليه عمدًا، فالضمير المنفصل المتقدم " نحن " يشي بالعظمة ، ويفصح عن القوة ، فهم قوم أولو بأس شديد ، ورثوا المجد التليد ، لقد أبان التقديم عن تقديمهم ، وعلو مكانتهم ، وشموخ هامتهم ، كما أن التقديم من أجل المحافظة على الجرس الموسيقي؛ إذ لو أَخّر لفات الطرب ، وتلاشى الحسن.

ومن خلال تتبع الانزياح في أسلوب التقديم في تلبيات العرب في الجاهلية ، يمكننا القول :

- انقادت اللغة العربية طيِّعَةً لخدمة مرادهم من تلبيّاتهم ، فقدموا وشدّوا الوثاق ، وراعوا أوجه التناسب والاتفاق .
- تنوعت صور التقديم في التلبيات ، فقدموا المتعلق على الفاعل ، وقدموه على المفعول ، وقدموا الخبر على المبتدأ ، وقدموا المتعلق على الخبر .
- كان الحفاظ على التوازن الصوتي ، والجرس الموسيقي ، وإيثار التنغيم باعثًا من بواعث التقديم .
- تعددت أغراض التقديم المعنوية مابين التخصيص والقصر ، والاهتمام بشأن المتقدم ، والتشويق إلى ذكر المتأخر .
- يمثل التقديم والتأخير ظاهرة واسعة الانتشار ؛ لما ينطوي علية من دقائق وأسرار .

المطلب الثاني :التكرار

يُعَدُّ التكرار من أبرز ظواهر الانزياح التركيبي وضوحًا حيث إنه لافتٌ للنظر ، وله عظيمُ الأثر في البحث والدرس ، وما يتركه في النفس من التساؤلات الكثيرة التي يثيرها حول مسبباته وبواعثه ، ومدى محافظته على وحدة النص ، وغاياته ، ومدلولاته .

والتكرار أحد ألوان الإطناب البلاغية ذات السمات الأسلوبيه الإبلاغية ، كما أنه أحد مظاهر الانزياح الرئيسة ؛ لأن الأديب يخرج من الأصل حيث يعيد الكلام كرةً ثانية ، وهو " في حقيقته إلحاح على جهة مهمة في العبارة يُعني بها الأديب أكثر من عنايته بسواها ، فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حسَّاسة ، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها ، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة ، تفيد النقد الأدبي الذي يدرس الأثر ويحلل نفسية كاتبه "(١)

وإنما يكون التكرار محمودا إذا جاء لغرض اقتضاه ، وسياق استدعاه وإلَّا دخل في دائرة الحشو أو التطويل وكلاهما معيب ، وإنما يتزينُ به موضعه اذا انفرد المكرر بدلالة جديدة ، و نجح في إيصال فكرة سديدة ، واستطاع الأسلوب المكرر أن يجذب الأفئدة ذات الفطرة السليمة ، ويأخذ بتلابيب العقول ذات الأفكار القويمة .

ولا يستقلُّ التكرار بكونه أحد أبرز ظواهر الانزياح التركيبي فحسب ؛ وإنما يتعدى ذلك لتكوين علاقات صوتية مؤثره بين السوابق واللواحق ، من خلال نُظُمٍ صوتية خاصة ، تجعله يرتبط بالوجدان ، ويعمل على انسجام أجزاء الكلام ، وتلاحم أطرافه ؛ لتحقيق التجاوب المطلوب في النص .

وقد يؤدي التكرار معنى التكامل – شانه شأن باقي صور الإطناب– ، فإذا أحس الأديب أو منشئ النص بشيء من النقص ؛ كرّرَ لسد الثغرة ودفع الخلل .

(١) ينظر: قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، صـ ٢٤٢ ، مكتبة النهضة – ١٩٦٧م ، ط ٣.

أما الناحية الأدبية فالأساليب المكررة " تعكس جانبًا من الموقف الشعوري والانفعالي لمنشئ النص ، كما يمثل ظاهرة أسلوبية تشكل لبنة من لبنات العمل الأدبي ، ولذلك ينبغي على المرء ألا ينظر إلى التكرار خارج نطاق السياق ؛ إذ لو فعل ذلك لما تبين له إلا أشياء مكررة لا يمكن لها ان تؤدي الى نتيجة "[١] والتكرار شأنه شأن سائر الأساليب " يحتاج إلى أن يجيء في مكانه من النص الأدبي ، وأن تلمسه يد الأديب تلك اللمسة السحرية التي تبعث الحياة في الكلمات "[٢]

والناظر في تلبيات العرب في الجاهلية سوف يجد فيها هذه الظاهرة الأسلوبية وفيرة ، وقد جاءت لتحمل معاني دلالية غزيرة .

إن أول ما يطالعنا في التلبيات" لبيك اللهم لبيك " ، وقد افتتحت هذه التلبيات – التي وقفت عليها – بهذه العبارة فيما عدا النذر اليسير[٣] وأيًا ما كان من أمر المطلع ؛ فإن التكرار فيه بارزٌ يسطع ، الأمر الذي يقتضي الوقوف لمعرفة خوافيه وما ينطوي عليه من عللٍ وأسرارٍ .

---

(١) التكرار في الشعر الجاهلي دراسة أسلوبية ، موسى ربابعة ، صـ ١٦٠ ، منشورات جامعة مؤتة – مؤتة للبحوث والدراسات ، يونيه ١٩٩٠م .

(٢) قضايا الشعر المعاصر ، صـ ٢٥٧ .

(٣) بدأت التلبيات بـ " لبيك اللهم لبيك " ما عدا تلبية تميم والتي كان مطلعها " تالله لولا أن بكرًا دونكا"، وتلبية اليمن التي مطلعها : "عاد إليك عانية" ، وتلبية جرهم التي مطلعها " والله لولا أنت ما خرجنا" ، وتلبية الأزد التي مطلعها " يا رب لولا أنت ما سعينا " ، وتلبية مذحج التي مطلعها " إليك يا رب الجلال والحرم" ، وتلبية خزاعة التي مطلعها " نحن ورثنا البيت بعد عاد "

كما أن هناك تلبيات أخرى صُدِّرت بكلمة " لبيك " مع اختلاف باقي الصيغة ، على نحو ما نجد في تلبية أخرى لربيعة " لبيك ربنا لبيك " ، وتلبية حمير التي مطلعها " لبيك عن حمير وهمدان " ، وتلبية الأزد التي مطلعها " لبيك رب الأرباب " ، وتلبية غسان التي مطلعها " لبيك ربّ غسان " ، وتلبية قضاعة التي مطلعها " لبيك نزجى كل جرمي ملهود " ، وفي تلبية أخرى لها " لبيك عن قضاعة " ، وتلبية همدان التي مطلعها " لبيك رب همدان " ، وتلبية كندة التي مطلعها " لبيك ما أرسي ثبير وحده " ، وتلبية النخع التي مطلعها " لبيك رب الأرض والسماء " ، وتربيه جُذام التي مطلعها " لبيك عن جُذام".

إن تكرار التلبية بهذه الصيغة " لبيك اللهم لبيك " يُفْصح عن أهميه المكرر وهو لفظ لبيك ، كما أن الإجماع أو شبهه على البدء به يشير إلى تعظيم واقر في الصدور، ثم إن تكرار" لبيك " للمرة الثالثة في مطلع العبارة الثانية ، أو للمرة الرابعة في مطلع العبارة الثالثة ، يوحي بإجلالٍ نفيس ، وتبجيل وتقديس ، على نحو ما نجد في تلبية قريش(١)

لَبَّيْـــــــكَ اللهُـــــــمَّ لبَّيْـــــــكْ

لَبَّيْـــــــكَ إِنَّ الحَمْـــــــدَ لَـــــــكْ

لَبَّيْـــــــكَ لَا شَـــــــرِيكَ لَـــــــكْ

وتلبية حضرموت(٢) لمرحب

لَبَّيْـــــــكَ اللَّهُـــــــمَّ لَبَّيـــــــكْ

لَبَّيْـــــــكَ إِنَّنَـــــــا لَـــــــدَيكْ

لَبَّيْـــــــكَ حَبِّبْنَـــــــا إِلَيْـــــــكْ

ونفس الأمر في تلبية ثقيف(٣)

لَبَّيْـــــــكَ اللَّهُـــــــمَّ لَبَّيْـــــــكْ

لَبَّيْـــــكَ كَفَـــــى بِبَيْتِنَـــــا بَنِيَّـــــهْ

(١) دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٥٣/٢ ، وانظر : النكت والعيون (تفسير الماوردي) ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت: ٤٥٠هـ) ، ٣١٠/٤ ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ، تحقيق : السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم .

(٢) دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٧٥/٢ .

(٣) السابق ، ١٤٧/٢ .

وتلبية هذيل[١]

لَبَّيْـــــــكَ اللَّهُـــــــمَّ لَبَّيـــــــكْ

لَبَّيْـــــــكَ أُبْنَـــــــا إِلَيـــــــكْ

وتلبية تميم[٢]

لَبَّيْـــــــكَ اللَّهُـــــــمَّ لَبَّيـــــــكْ

لَبَّيْـــكَ عَـــنْ تَمِـــيمٍ قَـــدْ تَرَاهَـــا

وتلبية ربيعة[٣]

لَبَّيْـــــــكَ اللَّهُـــــــمَّ لَبَّيـــــــكْ

لَبَّيْـــــــكَ مِـــــــنْ رَبِيعَـــــــةْ

وتلبية بكر بن وائل[٤]

لَبَّيْـــــــكَ اللَّهُـــــــمَّ لَبَّيـــــــكْ

لَبَّيْـــــــكَ حَقًّـــــــا حَقًّـــــــا

وغيرها الكثير والكثير من التلبيات التي تتخذ تكرار " لبيك " نسقًا وكأن في تكرارها عبقًا يتسابقون إليه ويقبلون عليه ، وكأن هذه الصيغة مثلت نوعًا من أنواع التواصل الروحي والحسي بين هذه القبائل المختلفة ، وإن اختلفت البيئات ، وتعددت الغايات .

(١) السابق ، ١٥٦/٢ .

(٢) تاريخ اليعقوبي،١/ ٢٥٥ ، دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٧٠/٢ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ،٢٥٦/١ .

(٤) الأزمنة ، ٤١/١ ، رسالة الغفران ، ١/ ٢٥١ .

وكأن في تكرار كلمة لبيك قوة جاذبةٌ اصطلح عليها العرب في الجاهلية .

إن هذا التكرار نوعٌ من أنواع الإلحاح المفضي إلى الإفصاح عن خبايا النفس، وما يعتمل في الشعور والحس ، كما أن ارتفاع الأصوات بهذه الصيغة وبكيفية واحدة يشير إلى اتفاق العقل العربي في الجاهلية على وجوب الإذعان والخضوع لقوة عليا ، وذاتٍ سُمْيا .

وهناك ملمحٌ آخر لهذا التكرار وهو إظهار الضعف المستوجب للنُّصْرة ، والاعتراف بالذنب من هذه الكثرة ، فدلالات كلمة " لبيك " تدور كلها حول معنى اللزوم ومداومة الخضوع والطاعة ، وكلها معانٍ كامنة داخل النفس البشرية ، تتوق للتعبير عنها ، ولعل في تكرارها نوع من هذا التعبير ، فإن " لكل نوعٍ من المعاني نوعًا من الألفاظ ، هو به أخصّ وأولى ، وضروبًا من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو فيه اجلى "(١).

والكلمة المكررة هنا لبيك اتفقت مع الأولى تمام الاتفاق ، وتوافقت معها أشد وفاق ، حيث اشتملتا على نفس الأداء الصوتي ، ونفس المعنى الدلالي ، و نفس الوزن الصرفي والعروضي ، ونفس التجانس اللفظي ، فكل هذا الاتحاد جعل الكلمة عماد ، وأضفى على الكلمة تعظيمًا لشأنها .

ولعل هذا التكرار كان نوعًا من العِوض عن غياب الذي يتوجهون إليه بالتلبية – في معتقدهم – ، خصوصًا وأن التلبية ذُكرت بصيغة المصدر التي تعني خلوصها من جميع المتعلقات كالزمن والفاعل والمفعول به وأي شيء آخر .

إن تكرار التلبية انتقل بها من كونها مجرد صيغة دعائية إلى مواطن العلمية ، وكأن هذه الصيغة صارت علمًا على شعائر الحج وعنوانًا رامزًا لطقوس العبادة ،

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت ٤٧١هـ) ، ٥٧٥/١ ، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة ، ط٣ ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م ، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر .

فانفردت العبارة بالسيادة ؛ يرشح لهذا أن الفاصل بين الكلمتين كلمة " اللهم " والله سبحانه وتعالى أعرف المعارف ، وتكرار الاسم الكريم في كل تلبية يوحي بتعظيمه وينوِّه بشأنه وتفخيمه .

إن تكرار التلبية متمثلة في كلمة " لبيك " أعطت للعبارة بُعْدًا آخر ، فاستحالت العبارة إلى علامة ، وتحولت إلى شامة ، مما أعطى للعبارة أشكالًا جماليةً ، ومستوياتٍ رمزيةً ، وفرائد تعبيرية .

ومن التكرار الذي ورد في تلبيات العرب في الجاهلية ، تكرار الحرف – الجار مع مجروره – " لك " في تلبية قريش[1] :

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لبَّيْكْ

لَبَّيْكَ إنَّ الحَمْدَ لَكْ

لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكْ

إلاّ شَرِيكٌ هُوَ لَكْ

تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكْ

ففي قولهم : " الحمد لك " ، " لا شريك لك" ، " هو لك " تكرار للتعظيم ، وقد أثرى التكرار هذا المعنى ، فضلًا عما فيه من جمال المبنى ، فالحمد لله ، ولا شريك لله ، فما أعظمه من إله ، ولكن لا تخلو التلبية من المعاني الشركية في نحو قولهم : " إلا شريك هو لك – تملكه وما ملك " ، وهذا مما يؤكد فكرة الإيمان بالله أو القوة المطلقة الغيبية التي لا يستطيعون التعرف على كنهها وحقيقتها ، فيلتمسون في الأصنام الحسية وسيلة تقريب وتقرُّب ، وهذا هو عين الشرك ، غير أن الله يبقى هو المعظم والأعظم – في دعواهم – فهو الذي يملك شريكه ، ولا يملكه شريكه .

إنَّ لام الملك في قولهم " لك " وتكرارها لتؤكد على عظيم أثر الله في نفوسهم ،

(١) الأزمنة ، ٣٩/١ .

وتبجيلهم إياه خوفًا وطمعًا ، رغبةً ورهبةً ، إلا أن عقولهم القاصرة ، وطقوسهم الشركية الحاضرة ، قد أعجزتهم عن الاستيعاب ، وأدخلتهم مظّان الارتياب .

ومهما يكن من أمر شركهم ، فقد أثبت التكرار معنى التفخيم " لله " في نفوسهم، وأضفى دليلًا ماديًا على هذا التعظيم والتفخيم بتكرارهم " لك " ، ومَنْ أَكْثَرَ الطَّرْقَ كاد أن يلج .

ومن التلبيات التي تزخر بهذا النمط الأسلوبي – التكرار – تلبية بني أسد[١] :

رَبْنَـــــا أَقْبَلَـــــتْ بَنُـــــو أَسَـــــدْ

أَهْـــــلُ الوَفَـــــاءِ وَالنَّـــــوَالِ وَالجَلَـــــدْ

فِينَـــــا النَّـــــدَى وَالـــــذُّرَى وَالعَـــــدَدْ

وَالمَـــــالُ وَالبَنُـــــونَ فَينَـــــا وَالوَلَـــــدْ

الوَاحِـــــدُ القَهَّـــــارُ وَالـــــرَّبُ الصَّـــــمَدْ

لَا نَعْبُـــــدُ الأَصْـــــنَامَ حَتَـــــى تَجْتَهِـــــدْ

لِرَبِّهَـــــــــــــــا وَتَعْتَبِـــــــــــــــدْ

لِحَجَّـــةٍ لَهَـــا الـــدِّمَاءُ ، وَحَجّهـــا حَتَـــى تَـــرِدْ

فقد تكرر في هذه التلبية " فينا " في قولهم : " فينا الندى " وقولهم " والبنون فينا " كما تكرر " الولد " بذكره مرة صراحة وذكره أخرى في كلمة " البنون " ، وتكررت العبادة في قولهم " لا نعبد " وقولهم " تعتبد " ، وتكرر الحج في قولهم " لحجه " وقولهم " وحجها " وكل هذا التكرار في تلبية واحدةٍ يوحي بالإلحاح وشدة الطلب فضلًا عن الفخر البادي في حديثهم عن أنفسهم .

(١) تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٥/١ .

فتكرار " فينا " يدل على مدى اعتزازهم بأنفسهم ، وتسليط الضوء على كثرة ما يملكون ، ولعله من باب التلذذ بذكر المكرر رغبة في إبداء حسنه ، فالتخصيص والتكرار تعاونا في هذه اللفظة وشَدًّا من أزر بعضهما لتحقق الكلمة الانفراد في بابها، والجمال في لفظها .

كما أن تكرار " الولد " فيها يفيد " التأكيد " ، وقد يكون من باب إثارة الانتباه والإشارة إلى كثرة ما لديهم حتى يكون توجههم لله بلا غاية مادية ، ولما كان البنون في البيئة العربية الجاهلية غير البنات ، استدعى ذلك التكرار للتنبيه على منزلتهم في نفوسهم ، وحبهم الشديد لهم .

وفي قولهم : " لا نعبد – تعتبد " كأن العبادة مُعلَّقةٌ مشروطة ، فيقينهم في وجود الله جعل عبادة الأصنام لله شرطًا لعبادتهم إيّاها ، ولا شك أن التكرار فيه إعلاء لقيمة العبادة وأهميتها ، غير أن العبادة – في رأيي – لما كانت معلقة بفعل ليتحقق الآخر ؛ كان ذكرها مكررة أولى ، لأن إسناد العبادة لأنفسهم مخالف لإسناد العبادة للأصنام ، فاقتضى تكرار المسند إليه تكرار المسند " العبادة " ، فعلى الأصنام أن تجتهد في عبادة الله لتكون جديرة لأن يعبدوها مستحقة لأن يدنوها .

لقد لعب التكرار باعتباره مظهرًا من أهم مظاهر الانزياح التركيبي دورًا بارزًا في خلع دلالات جديدة على النص ، مما جعل النص أوقع في النفوس وأجلى لأي التباس أو خلط أو تعميه .

ومن التلبيات التي تحققت فيها هذه الظاهرة الأسلوبية تلبية ربيعة[1]:

لَبَّيْكَ مِنْ رَبِيعَةْ

سَامِعَةً لِرَبِّهَا مُطِيعَةْ

لِرَبٍّ مَا يُعْبَدُ فِي كَنِيسَةٍ وَبيعَةْ

وَرَبِّ كُلِّ وَاصِلٍ أَوْ مُظْهِرِ قَطِيعَةْ

(١) الأزمنة ، ٤١/١ .

حيث تكررت كلمة " رب " ثلاث مرات ، وفيه تعظيم لمعنى الربوبية ، فكونه ربًّا حتم عليهم السمع والطاعة ، كما أنه ربٌّ منزهٌ عن المكان ، وهو رب للجميع القاصي منهم والداني ، والمقبل والمدبر ، والقاطع والواصل ، إن كل هذه الصفات استرعت انتباههم واستدعت إكبارهم وتعظيمهم ، لقد كان للتكرار أثرٌ بارز في استحضار معنى الربوبية بما تنطوي عليه من مفاهيم كالرعاية والعناية والاهتمام والتي تُشْعِرُ الإنسان بالأمان ، فالإنسان بحاجة دائمة إلى يدٍ حانيةٍ ، واستشعار عناية دانية ، فكان تلذذه بذكر الرب الواقر في القلب ، المستوجب للحمد والحبّ.

ومن التلبيات التي اشتملت على التكرار تلبية كنانة[١]:

لبَّيْـــــكَ اللهُـــــمَّ لبَّيْـــــكْ

اليَـــــوْمُ يَـــــوْمُ التَّعْرِيـــــفْ

يَـــــومُ الـــــدُّعَاءِ وَالوقُـــــوفْ

حيث كررت كلمة " يوم " ثلاث مرات ، للتأكيد على أهمية هذا اليوم وهو يوم الوقوف بعرفة ، وكان الوقوف بعرفة من مناسك الحج عند الجاهليين ، إلا أن الاستبشار بهذا اليوم والمبالغة في الاحتفاء به مما يؤكد على أهميته وتعظيمه ، ولعل التكرار أيضًا يراد به التلذذ بذكره ، والترنم بتكريره ، والنفس طَوَّاقة بطبعها لكل محبوب منتظر ، ولما كان يوم التعريف هو قمة الهرم في شعيرة الحج كان الشوق إليه أقوى ، وترديد ذكره في النفس أجدى ، وعلى اللسان أعلى وأولى .

وعلى نفس نمط التكرار كانت تلبية هذيل[٢]:

لبَّيْـــكَ عَـــنْ هُـــذَيْل قَـــدْ أَدْلَجَـــتْ بِلَيْـــلْ

تَعْـــدُو بِهَـــا رَكَائِـــبُ إِبِـــلٍ وِخَيْـــلْ

(١) الأزمنة ، ٤٠/١ ، تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٥/١ .

(٢) الأزمنة ، ٤٠/١ .

خَلَّفَــتْ أَوْثانَهــا فِــي عَــرْضِ الجُبَيْــلْ

وَخَلَّفُــوا مَــنْ يحفــظُ الأصــنامَ والطَّفَيْــلْ

فِــي جَبَــلٍ كَأَنَّــهُ فِــي عَــارِضٍ مُخِيــلْ(١)

تَهْــوي إِلَــى رَبٍّ كَــرِيمٍ مَاجِــدٍ جَمِيــلْ

حيث تكررت كلمة " خَلَّفت – خلّفوا " ، ووجب التخليف ، لأن الغاية أسمى ، والمقصود أبهى ، فتركهم الأصنام في عرض الجبل ، وتوكيلهم للبعض بحفظها كان من باب تقديم الأولى – فيما يعتقدون – ، ولعل هذا هو مردّ تكرارهم ؛ ولست أرى التكرير سوى تقرير ، فالتكرار في قولهم " خلفوا " بعد " خلفت " جاء من باب تأكيدهم على فعلهم ، وأنهم فعلوا ذلك بكامل وعيهم ، ليحظوا بتكليل سعيهم ، وربح بيعهم .

إنهم إنما فعلوا ذلك من أجل عظم الهدف ، فمرادهم ربٌّ كريمٌ ماجد جميل ، والتكرار مشعرٌ بأنهم لا يأبهون بالتخليف ولا بمن خلفوا ، فاللامبالاة حاضرة ، ولكنهم من باب ذرّ الرماد في العين ، وحفظاً لشيء من ماء الوجه ، وكَّلُوا حفظ الأصنام لغيرهم ، وأكملوا طريقة سيرهم .

ومن خلال تتبع الانزياح في أسلوب التكرار في تلبيات العرب في الجاهلية ، نخلص إلى الآتي :

- مثَّل التكرار مظهرًا مهمًا من مظاهر الانزياح ، بما أضفى على نصوص التلبيات من دلالات مختلفة .
- جاءت الأساليب المكررة في مواضعها قمةً في البلاغة ، ورمزًا لقدرتهم على توظيفها ، فلا نجد تكرارًا ينبو به موقعه ، أو يرفضه موضعه .

(١) أخيلت السماء وخيلت وتخيلت : تهيأت للمطر فرعدت وبرقت ، فإذا وقع المطر ذهب اسم التخيل ، لسان العرب ، ٢٢٨/١١ ، مادة : (خيل) .

- تنوعت أغراض التكرار في التلبيات ، فتارة نجد التعظيم بارزًا ، والتقديس جاحظًا ، وتارة يأتي التكرار للتقرير والتأكيد ، أو يجيء من باب التلذذ بذكر المكرر واعتناءً به ، وقد يجيء التكرار من باب الاحتفاء بالمكرر ، وغيرها من المعاني التي تدور في هذا الفلك .
- كانت ظاهرة التكرار – باعتبارها ظاهرة أسلوبية – كثيرة في التلبيات ؛ بسبب كثرة المعاني والأغراض التي تنطوي عليها هذه الظاهرة .
- تمكن العربي في الجاهلية من عرض أفكاره ، وبسط مشاعره ، والبوح بانفعالاته ، بما يتيحه التكرار من خلق مساحات تعبيرية ، تجعل العبارات ذات مدلولات تأثيرية .

المطلب الثالث : الانزياح في الأساليب الإنشائية

يُعَدُّ الانزياح في الأساليب الإنشائية من أبرز الدَّوال على مكنون النفس ؛ بسبب خروج أو عدول ألفاظها على ما يقتضيه الظاهر ، وقد تنوعت الرُّؤى لدى البلاغيين لطبيعة هذه الأساليب ، فبعضهم يرى " ما يستفاد من صيغة الإنشاء أنه من قبيل المجاز ، ومنهم من يرى أنه من قبيل الكناية ، ومنهم من يرى أنه من مستتبعات التراكيب "(١).

والإنشاء في أصل وضعه اللغوي هو الإيجاد من العدم ، ولذلك فهو مخالف بطبيعة أصله للخبر ، لأن الخبر موجود قبل التلفظ به ، بينما لا يتواجد الإنشاء إلا ساعة إنشائِه ، وترسيخ دعائم بنائِه ، وهو إذ يُنشأُ فقد يرادُ به ظاهر اللفظ ، وقد يرادُ به معانٍ جديدة ، ومدلولات فريدة ، تستنبط من السياق ، مبنية على الوفاق بين الملفوظ والملحوظ .

والبلاغيون يقسمون الإنشاء قسمين باعتبار الدلالة على الطلب ، فهناك إنشاءٌ طلبي يستدعي حصول المطلوب ، وآخر غير طلبي لا يستدعي حصول شيء لأنه في أصله منقولٌ من الخبر ، وقد أولى البلاغيون عنايتهم بالقسم الأول لما فيه من لطائف ودقائق ، وما يحويه من درر ورقائق ، كما أنهم يعنون بالإنشاء الطلبي عند الإطلاق ، ويكون نوعه عند التقييد بحسب قيده .

ولما كانت الأساليب الإنشائية الطلبية هي المحققة لمفهوم الانزياح ؛ اقتصر البحث على ما ورد في تلبيات العرب قبل الإسلام من صيغ هذه الأساليب التي يعدلون فيها عن حقيقتها وما وضعت فيه إلى معانٍ أخرى ؛ لتحقيق أغراضهم ، والإفصاح عن المتواري في صدورهم .

ومن يمعن النظر في تلبيات العرب قبل الإسلام يلاحظ للوهلة الأولى غلبة

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، الشيخ عبد المتعال الصعيدي ، ٣٨/٢ ، مكتبة الآداب – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

الأساليب الخبرية ؛ لأن مراد التلبية وإن كان تقربًا ودعاءً ورجاءً ؛ إلا أنه مبنيٌّ على التعظيم والإكبار والإجلال ، وهذا ما يتناسب مع التقرير والتأكيد الذي هو أصل الأساليب الخبرية لأن الأسلوب الخبري " أقدرُ الأساليب وأوفاها بتصوير الواقع ، وإبرازه في صورة جلية واضحة ؛ لأنه عبارة عن حكاية الواقع وتجسيده كما هو ، أو كما يحسه القائل ، ويراه في عينه ، ويرتسم في مخيلته ، أو كما ينبغي أن تكون عليه صورته " (١)، وكان العرب في الجاهلية يعمدون إلى الخبر لإظهار أحوالهم من النعمة والمنعة ، وتعداد مآثرهم وما قد حباهم الله إيّاه ، أو يشرحون فاقتهم ويظهرون ضعفهم وضيق عيشهم، وهم في كلا الحالين يعظّمون ويمجّدون ، ويُقرّون ويحمدون.

وكل هذا يعني أن الأساليب الإنشائية في سياق التلبية كانت قليلة ، يتخذون من الأخبار إليها وسيلة ، وقد اقتصرت الأساليب الإنشائية على معنى الدعاء أو كادت ، فنداؤهم دعاء ، وأمرهم دعاء ، ونهيهم دعاء ، ولم أقف – فيما بين يديّ من تلبيات– إلا على أسلوب استفهام واحد .

وبدهيٌّ أن يكون الغرض الرئيسيُّ الذي تخرج إليه الأساليب الانشائية هو الدعاء ، حيث المقام يقتضيه ، والكلام يستدعيه ، والحال يطابقه ، ومقتضى الحال يوافقه .

ويُعَدُّ النداء أبرز ظاهرة أسلوبية إنشائية في هذه التلبيات ، إذ لا تخلو تلبية منه أو تكاد ، فكل تلبية تبدأ بـ " لبيك اللهم لبيك " فيها نداء غرضه الدعاء في " اللهم " ، والأصل فيها " يا الله " ثم حذف حرف النداء وعُوِّض عنه بالميم المشددة فصارت " اللهمَّ " ، فغالب النداء وُجد على هذه الصيغة في تلبياتهم ، وقد جاء النداء مصاحبًا لغير لفظ الجلالة "الله" في غير تلبية ، على نحو ما نجد في تلبية (٢)عبد قيس :

لَبَّيْــكَ رَبّ ، فَاصْــرِفَنْ عَنَّــا مُضَــرْ

(١) خصائص بناء الجملة التعليلية في شعر المعلقات ، بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة ، د.السيد أحمد أحمد موسى ، صـ ١٧٢٩ ، العدد الأربعون – الجزء الرابع – ٢٠٢١م .

(٢) دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٧٥/٢ .

وكما نجد في تلبية[١]الأزد :

يَـــا رَبّ لَـــولَا أَنْـــتَ مَـــا سَـــعَيْنَا

وفي تلبية أخرى[٢]للأزد :

لَبَّيْـــــــــكَ رَبَّ الأَرْبَـــــــــابْ

وفي تلبية [٣]غسان:

لَبَّيْـــــــــكَ رَبّ غَسَّـــــــــانْ

وفي تلبية[٤] همدان :

لَبَّيْـــــــــكَ رَبّ هَمْـــــــــدَانْ

وفي تلبية[٥]مذحج :

لَبَّيْـــكَ يَـــا رَبَّ الجَـــلالِ وَالحَـــرَمْ

وفي تلبية أخرى[٦]لمذحج :

لَبَّيْـــــــــكَ رَبَّ الشِّـــــــــعْرَى

رَبَّ الـــــــــلَّاتِ وَالعُـــــــــزَّى

وفي تلبية[٧] النخع :

لَبَّيْـــــــكَ رَبَّ الأَرْضِ والسَّـــــــمَاءْ

وخـــالِقَ الخَلْـــقِ ومُجْـــزِي المَـــاءْ

---

(١) الأزمنة ، ٤١/١ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٦/١ .

(٣) السابق ، ٢٥٦/١ .

(٤) رسالة الغفران ، ٢٥١/١ ، مناقب الأسد الغالب ، ١٨/١ .

(٥) الأزمنة ، ٤٢/١ .

(٦) تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٦/١ .

(٧) الأزمنة ، ٤٣/١ .

وفي تلبية غير منسوبة[١]:

لَبَّيْـــــــكَ رَبّنَـــــــا لَبَّيـــــــكْ

وَالخَيْـــــــرُ كُلُّـــــــه بِيَـــــــدَيكْ

كل هذه التلبيات جاء النداء فيها بغير لفظ " الله " وإن كانت خرجت كلها عن معنى طلب الإقبال إلى معنى الدعاء ، وهذا أبرز مظهر من مظاهر النداء في التلبية ، كما أن هذه النداءات لا تخلو من شيء من التلطف والتودُّد ؛ حيث أرادوا إظهار مدى حُبِّهم لآلهتهم.

والمعنى الوحيد الذي خرج إليه النداء لغير الدعاء هو معنى الإغراء ، كما ورد في تلبية[٢] عك ومذحج :

يَـــا مَكَّـــةُ ، الفَـــاجرَ مُكِّـــى[٣] مَكَّـــا

وَلَا تَمُكِّـــــى مَـــــذْحجًا وعَكَّـــــا

فالنداء في قولهم " يا مكّةُ " خرج إلى معنى الإغراء ؛ للحث على إهلاك

(١) رسالة الغفران ، ٢٥٠/١ .

(٢) الأزمنة ، ٤٣/١ ، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني ، علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي ، (ت : ٤٥٠ هـ) ، ١٣٢/٤ ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٤١٩ هـ –١٩٩٩ م، ط١، تحقيق : الشيخ علي محمد معوض – الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي ، ١٧٧/١ ، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، أساس البلاغة ، ٦٠١/١، كشف المشكل من حديث الصحيحين ، أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، (ت: ٥٩٧هـ) ، ٣٥٣/١ ،دار الوطن – الرياض – ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، تحقيق : علي حسين البواب ، زاد المسير في علم التفسير ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت : ٥٩٧ هـ) ، ٤٣٩/٧ ، المكتب الإسلامي – بيروت – ١٤٠٤ ،ط٣ ، تاريخ المستبصر، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب ابن محمد المعروف بابن المجاور الشيباني الدمشقي (ت : ٦٩٠هـ) ، ١/١ ، (د/ت ، ط) .

(٣) مكه يمكه مكا : أهلكه ، وقيل: سميت مكة لأنها كانت تمك من ظلم فيها وألحد أي تهلكه ، لسان العرب ، ٤٩١/١٠ ، مادة : (مكك) .

الفاجر المُصَرَّح به في التلبية .

ولم يكن النداء هو أكثر أساليب الإنشاء دورانًا على ألسنة الجاهليين من باب المصادفة ؛ كونه هو الأسلوب الخطابي الأكثر رواجًا في الاستخدام ، والأكثر استعمالًا وَدورانًا على ألسنة المتكلمين ؛ لما تتمتع به بنيته التركيبية من قدرة تعبيرية عن شتى الأغراض الإنسانية.

ولما كان توجُّهُ الجاهليين إلى آلهتهم بغية التقرب إليهم ؛ كان النداء حاضرًا ، والتضّرّعُ ماثلًا ، والدُّعاءُ جاثمًا ؛ علّهم يظفرون بمطلب أو يحظون بمكسب .

وبعيدًا عن أنَّ دعاءهم غير مقبول بسبب إشراكهم ، وأفول عقولهم ، وكبرهم وعِنَادهم ، إلا أنه من الناحية الأسلوبية وافق المقام ، وجاء على أحسن ما يجيء الكلام .

وإذا ما انتقلنا إلى ثاني الأساليب الإنشائية وهو الأمر ؛ فلا جديد ! وكأن إنشاءهم قصر مشيد على ضفاف غرض واحد وهو الدعاء ، ومعلوم أن الأمر هو طلب فعلٍ غير كفٍّ على وجه الاستعلاء ، بمعنى أن يكون الآمر مستعليًا في ذاته على المأمور ، والناظر في أساليب الأمر في التلبيات يجد أن الدعاء هو الغرض ، ولا مضض ! فأنى لمستفلٍ عابد يسأل المستعلي المعبود ، المعطي بلا حدود دون دعاء ؟ أمرهم دعاءٌ مشوبٌ بالرجاء على نحو ما نجد في تلبية ثقيف[1] :

دَانَــتْ لَــكَ الأَصْــنَامُ تَعْظِيمًــا إِلَيــكْ

قَـــدْ أَذْعَنَـــتْ بِسّـــلْمِها إِلَيـــكْ

فَـــاغْفِرْ لَهَـــا فَطَالَمَـــا غَفَـــرْتْ

فالأمر في قولهم : " فاغفر " خرج عن معناه الأصلي إلى معنى الدعاء .

ونجد نفس الأمر في تلبية [2]عبد قيس :

لَبَّيْـــــكَ اللَّهُـــــمَّ لَبَّيـــــكْ

(١) الأزمنة ، ٣٩/١ .

(٢) دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٧٥/٢ .

لَبَّيْـكَ رَبِّ ، فَاصْـرِفَنْ عَنَّـا مُضَـرْ

وَسَـــلِّمَنْ لَنَـــا هَـــذَا السَّـــفَرْ

وَاكْفِنَـــا اللَّهُـــمَّ أَرْبَـــابَ هَجَـــرْ

فالأمر في : " اصرفن – سلمّن – اكفنا " خرج – أيضًا –عن معناه الحقيقي إلى معنى الدعاء كما هو ظاهر جليّ .

وعلى نفس المنوال جاء الأمر في تلبية حِمْيَر وهمدان[١] :

لَبَّيْـــــكَ إِنَّنَـــــا عَبِيـــــدْ

وَكُلُّنَـــــا مَيْسَـــــرةٌ عَتِيـــــدْ

وَأَنْـــــتَ رَبُّنَـــــا الحَمِيـــــدْ

أُرْدُدْ إِلَيْنَـــا مُلْكَنَـــا وَالصَّـــيدْ

فالأمر في قولهم : " اردُد " خرج من معناه الأصلي إلى معنى الدعاء .

وعلى ذلك فكل الأساليب الإنشائية التي جاءت على صورة الأمر أُريد بها معنى الدعاء ، وهو ما يتناسب وطبيعة الطلب في هذا المقام .

وعلى هذا السياق أُريد معنى الدعاء من الأمر في تلبية هَمْدَان[٢] :

لَبَّيْـــكَ بَغِّـــضْ إِلَيْنَـــا الشَّـــرْ

وَحَبِّـــبْ إِلَيْنَـــا الخَيـــرْ

وفي تلبية مذحج[٣] :

لَبَّيْـــكَ أُحْبُنَـــا بِمَـــا لَـــدَيكْ

(١) السابق ، ١٦٥/٢ .

(٢) السابق ، ١٦٣/٢ .

(٣) السابق ، ١٦٤/٢ .

وفي تلبية كندة[١] :

فَاكْفِنَـــا كُـــلَّ حَيَّـــةٍ رَصُـــودْ

وقولهم في تلبية أخرى[٢] :

أَنْـــــتَ حَكِـــــيمٌ فَاتْرُكْـــــهْ

وفي تلبية حضر موت[٣] :

لَبَّيْـــــكَ حَبِّنَـــــا إِلَيـــــكْ

وفي تلبية خزاعة[٤] :

فَـــاغْفِرْ فَأَنْـــت َغَـــافِرٌ وَهَـــادْ

وفي تلبية هوازن[٥] لجهار[٦] :

لَبَّيْـــكَ اجْعَـــلْ ذُنُوبَنَـــا جُبَـــارْ

وَاهْـــــدِنَا لِأَوْضَـــــحِ المَنَـــــارْ

وَمَتِّعْنَـــــا وَمِلَّنَـــــا بِجَهَـــــارْ

وأسلوب الأمر الوحيد الذي خرج لغير الدعاء هو نفس أسلوب النداء الذي خرج لغير الدعاء ، وهو ما ورد في تلبية عك ومذحج[٧] :

يَـــا مَكَّـــةُ ، الفَـــاجرَ مُكِّـــي مَكَّـــا

(١) دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٧٥/٢ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ، ٢٥٦/١ .

(٣) دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٧٥/٢ .

(٤) الأزمنة ، ٤٣/١ .

(٥) دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٧٠/٢ .

(٦) جهار : كان من أصنام هوازن ، وموضعه بعكاظ ، وسدنته آل عوف النصريون ، وكانت محارب معهم فيه ، وكان في سفح أطحل ، المحبر ، ٣١٥/١ .

(٧) الأزمنة ، ٤٣/١ ، الحاوي الكبير،١٣٢/٤ ، الأحكام السلطانية ،١٧٧/١،أساس البلاغة،٦٠١/١.

حيث خرج الأمر في قولهم " مُكِّي " إلى معنى الإغراء بالحث على الفعل ، وقد يراد به معنى التمني ، فهم يتمنون على مكة لو أنها أهلكت الفاجر .

وإذا انتقلنا إلى ثالث صورة من صور الإنشاء الطلبي وهي النهي ، لا نجدها تختلف كثيرًا أو قليلًا عن الصورتين السابقتين ، فجاء النهي يحمل معنى الدعاء على نحو ما نجد في تلبية هَمْدَان[١] ليعوق :

لَبَّيْـــــكَ اللَّهُـــــمَّ لَبَّيـــــكْ

لَبَّيْـــكَ بَغِّـــضْ إِلَيْنَـــا الشَّـــرْ

وَحَبِّـــــبْ إِلَيْنَـــــا الخَيـــــرْ

وَلَا تُبْطِرْنَـــــــا فَنَأْشَـــــــرْ

وَلا تَفْـــــــدَحْنَا بِعَثَّـــــــارْ

ففي قولهم " ولا تبطرنا " وقولهم : " لا تفدحنا " نهيٌ خرج عن معناه الحقيقي وهو طلب الكف عن الفعل إلى معنى آخر مجازي وهو الدعاء ، فهم يتوجهون إلى الله تعالى بألا يجعلهم قليلي احتمال النعمة ، أو بإلا يكونوا طاغين عند حلولها ، كما يتضرعون إليه بألا يلحق بهم النوازل ، وأن يجنبهم العثار والذلل ، وكان الدعاء على صورة النهي في هذا المقام أوقع وأنسب ؛ حيث أقروا بالعاقبة والمآل الذي ينتظرهم إذا قضى الله عليهم بأمره ، ولذلك نجد دعاءً مشفوعًا بالرجاء ، لطلب دفع البلاء والابتلاء .

كذلك لا يختلفُ الأمر كثيرًا في صورة النهي الوحيدة التي خرجت إلى غير الدعاء ، في تلبية عك ومذحج[٢] سالفة الذكر :

يامكـــةُ ، الفـــاجرَ مُكّـــي مَكّـــا

(١) دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٦٣/٢ .

(٢) الأزمنة ، ٤٣/١ ، الحاوي الكبير ،١٣٢/٤ ، الأحكام السلطانية ،١٧٧/١، أساس البلاغة ،٦٠١/١. ،٦٠١/١.

ولا تمكـــي مـــذحجًا وعكـــا

فلم يستعمل النهي هنا في معناه الحقيقي ، كما أنه لم يخرج إلى معنى الدعاء، ولكنه التمني أو الرجاء ، فعلى الرغم من تمنيهم أن تهلك مكةُ الفاجرَ ؛ فهم على نفس المقدار يرجون لأنفسهم السلامة من هذا الهلاك ، ولعلهم بذلك يقابلون بين صلاحهم وعدم استحقاقهم الهلاك وبين فساد غيرهم واستحقاقهم إياه ؛ الأمر الذي يوحي باستقامتهم ويشي بعلو هامتهم .

وكان الاستفهام آخر الصور الإنشائية ، وأقلّها ؛ فلم أقف إلا على استفهام واحدٍ في تلبيات العرب ، وهي تلبية الأشعريين[١] لمنطبق[٢] :

اللَّهُـــمَّ هَـــذَا وَاحِـــدٌ إِنْ تَمَّـــا

أَتَمَّـــهُ اللَّـــهُ ، وَقَـــدْ أَتَمَّـــا

إِنْ تَغْفِـــرْ اللَّهُـــمَّ تَغْفِـــرْ جَمَّـــا

وَأَيُّ عَبْـــدٍ لَـــكَ لَا أَلَمَّـــا

ففي قولهم : " وأي عبدٍ لك لا ألمّا " استفهامٌ خرج عن معناه الحقيقي وهو طلب حصول صورة المستفهم عنه إلى معنى مجازي وهو النفي ، والمعنى أنه لا يوجد عبدُ لم يُذنب ، وهذا الاستفهام يوحي بشيءٍ من سلامة الفطرة ، فالبشر جميعًا مجبولون على الأخطاء ، والكُلُّ خطّاء ، كما أنه يتضمن معنى التقرير والتأكيد ، فالجميع يذنبون ولا شَكَّ ، والجميع يُخطِئون ولابُدَّ .

(١) الأزمنة ، ١/ ٤٢ ، دراسات في الأدب الجاهلي ، ١٨٦/٢ .

(٢) المنطبق كان للسلف وعك والأشعرين ، وكان صنمًا من نحاس ، يكلَّمون من جوفه كلاما لم يسمع بمثله ، فلما كسرت الأصنام وجدوا فيه سيفًا ، المحبر، ٣١٨/١.

ومن خلال تتبع الانزياح في الأساليب الإنشائية في تلبيات العرب في الجاهلية نلاحظُ الآتي :

- ندرة الأساليب الإنشائية ذات النبرة العالية ، والعاطفة الطاغية .
- أن الأساليب الإنشائية انزاحت عن معانيها الحقيقية لتخرج – في الأعم الأغلب – إلى معاني التذلل والتضرع والخضوع متخذةً من الدعاءِ وعَاءً .
- جاءت الأدوات الدّالة على صور الإنشاء المختلفة على صيغتها الرئيسة ، وكأنها إنشاءات تقريرية ، فجاء النداء بـ (يا) مذكورة أو محذوفة ، ولم يخرج الأمر عن صورته الرئيسة (فعل الأمر) ، وكذلك جاء النهي بأداته الوحيدة (لا) .
- دارت الدَّوَال الإنشائية حول مدلولات طلبية تسير في فلك واحد وهو الدعاء والتضرع والرجاء ، وهو ما يشير إلى إقرار العربي الجاهلي بوجود إله مستحق للعبادة ، جديرٌ بها ، ولكن انزاحت بهم السبل فعبدوا الأصنام بدعا ، وأشركوا بالله وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .
- غلبة الأساليب الخبرية التي توحي بقناعاتهم العقدية ، وصدق توجهاتهم التعبدية وإن خلت من الواقعية !

الخَاتِمَةُ

وبعد هذه الجولة ، وإذ تصل هذه الدراسة إلى نهايتها ؛ فإن خيرَ متاعها خاتمةٌ نجني من خلالها بعض ثمرات هذا البحث ، ونرصدُ أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة ، والتي يمكن إجمالها فيما يلي :

أولًا : ارتكزت الدراسة على نمطٍ واحد من أنماط الأسلوبية ، وهو النمط الذي يُعنى بالنّص ؛ لجدارته بإبراز ما تنطوي عليه النفس ، مع عدم إغفال المقام ، وما يقتضيه حال المتكلم والمخاطب .

ثانيًا : ليست شعرية الانزياح باعتبارها أهم أنماط الدراسة الأسلوبيةُ غايةً في ذاتها ، وإنما هي وسيلةٌ نستجلى بها غوامض النصوص ، ونقف من خلالها على القيم الفنية والجمالية والنفسية الكامنة فيها .

ثالثًا : اعتمد البحث على الانزياح باعتباره وسيلة الوسيلة ، كما اعتمد على أشهر تقسيماته إلى انزياح استبدالي ، وانزياح تركيبي .

رابعًا : تمثلت مظاهر الانزياح الاستبدالي في تلبيات العرب في الجاهلية في الاستعارة والكناية والانزياح المعجمي ، بينما هي في الانزياح التركيبي : التقديم والتأخير ، والتكرار ، والانزياح في الأساليب الإنشائية .

خامسًا : استعان العرب في الجاهلية في أساليب التلبية بالاستعارة والكناية باعتبارهما وسيلتين من أكثر الوسائل التي تعمل على إبراز المعاني وتقريرها في الأذهان من خلال تحويل المعقول إلى محسوس ، مما كان له أثر واضح في الكشف عن خبايا النفوس .

سادسًا : كشف الانزياح المعجمي عن انحرافٍ عقدي استلزم بالضرورة انحراف لفظي ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه انحرافًا عكسيًا .

سابعًا : تنوعت الأسرار الجمالية والبلاغية في أسلوب التقديم والتأخير والتكرار ، وإن تشابهت من حيث الظاهر ما بين تخصيص واهتمام وتنبيه وتشويق

وتأكيد وتقرير وغيرها من المعاني التي تنبأ عن مقدرة لغوية لدى عرب الجاهلية .

ثامنًا : غلبت الأساليب الخبرية على نصوص التلبية ، وهذا أمرٌ طبعى اقتضاه الحال ؛ بسبب قدرتها على تصوير قناعة العرب في الجاهلية ، وثقتهم التامة بصدق أخبارهم وصحة ما تنطوي عليه .

تاسعًا : خرجت الأساليب الإنشائية – على اختلافها – إلى غاية واحدة وهي الدعاء والرجاء وهو ما يناسب شعيرة الحج ، فيطلب كلُّ ذي حاجة حاجته ، عساه أن يظفر ببغيته ومنيته .

عاشرًا : كشفت الدراسة عن إيمان العرب في الجاهلية بالله عزّ وجلّ وشرك به في آن واحدٍ ، وهو أمر مُلْغِز معبرٌ عن مزيج من الوعي واللاوعى ، فقد ضَلّ السعي ، ويحسبون أنهم مهتدون .

ثَبْتُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ

١- الآحاد والمثاني ، أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني ، (ت : ٢٨٧ هـ) ، دار الراية – الرياض – ١٤١١ – ١٩٩١ ، ط١، تحقيق : د. باسم فيصل أحمد الجوابرة .

٢- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م

٣- أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، (ت : ٢٥٠ هـ) ، دار الأندلس للنشر – بيروت – ١٩٩٦م– ١٤١٦هـ ، تحقيق : رشدي الصالح ملحس

٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، أبي السعود محمد بن محمد العمادي، (ت : ٩٥١هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٥- الأزمنة وتلبية الجاهلية ، محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي ، الشهير بقُطْرُب ، (ت : ٢٠٦هـ) ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، ط٢ ، المحقق: د حاتم صالح الضامن .

٦- أساس البلاغة ، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري ، دار الفكر – ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

٧- الاستعارة في النقد الأدبي الحديث الأبعاد المعرفية والجمالية ، د/ يوسف أبو العدوس ، الأهلية للنشر والتوزيع – عمان / الأردن – ١٩٩٧م ، ط ١ .

٨- أسرار البلاغة ، الجرجاني ، (ت : ٤٧١ هـ) ، (د.ت / ط) .

٩- أسلوبية الانزياح في النص القرآني – رسالة دكتوراه ، إعداد : أحمد غالب النوري الخرشة ، الأردن / جامعة مؤتة / قسم اللغة العربية وآدابها – ٢٠٠٨م.

١٠-الأسلوبية الرؤية والتطبيق ، د/ يوسف أبو العدوس ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة – ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٧ م ، ط١ .

١١-الإصابة في تمييز الصحابة ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، ٦١٣/٢ دار الجيل – بيروت – ١٤١٢ – ١٩٩٢ ، ط١ ، تحقيق : علي محمد البجاوي .

١٢-الأصنام ، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، (ت : ٢٠٤ هـ) ، دار الكتب المصرية – القاهرة – ٢٠٠٠م، ط٤ ، تحقيق : أحمد زكي باشا .

١٣-إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، (ت : ٧٥١ هـ) ، دار المعرفة – بيروت – ١٣٩٥ – ١٩٧٥ ،ط٢،تحقيق : محمد حامد الفقي .

١٤-الأغاني ، أبو الفرج الأصبهاني(ت : ٣٥٦هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر – لبنان ، تحقيق : علي مهنا وسمير جابر

١٥-الأفعال ، أبو القاسم علي بن جعفر السعدي ، عالم الكتب – بيروت ، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م ، ط١

١٦-الانزياح التركيبي في النص القرآني دراسة أسلوبية ، عبد الله خضر ، دروب للنشر والتوزيع – عمَّان/ الأردن – ٢٠١٦م ، الطبعة العربية .

١٧-البرهان في علوم القرآن ، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، دار إحياء الكتب العربية لعيس الحلبي – ١٣٧٦هـ -١٩٥٧م ، ط١ ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم .

١٨- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، الشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

١٩-البلاغة والأسلوبية ، د/ محمد عبد المطلب ، مكتبة لبنان ناشرون ، الشركة المصرية العالمية للنشر- ١٩٩٤م ، ط١ .

٢٠-البناء الفني للصورة الأدبية عند ابن الرومي ، علي علي صبح ، مطبعة الأمانة -١٢٩٦هـ – ١٩٧٦م ، ط١ .

٢١-تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، دار الهداية ، تحقيق : جماعة من المحققين .
٢٢- تاريخ المستبصر، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب ابن محمد المعروف بابن المجاور الشيباني الدمشقي (ت : ٦٩٠هـ) ، (د/ت ، ط) .
٢٣-تاريخ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ، (ت : ٢٩٢ هـ) ، دار صادر – بيروت .
٢٤- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر – تونس – ١٩٨٤م .
٢٥-تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم ، محمد بن أبي نصر بن حميد الأسدي الحميدي ، (ت : ٤٨٨هـ) ، مكتبة السنة – القاهرة – مصر ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥ م ، ط١ ، تحقيق : د . زبيدة محمد سعيد عبد العزيز
٢٦-تفسير مقاتل بن سليمان ، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي ، (ت : ١٥٠هـ) ، دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت – ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م ، ط١، تحقيق : أحمد فريد .
٢٧-التكرار في الشعر الجاهلي دراسة أسلوبية ، موسى ربابعة ، منشورات جامعة مؤتة – مؤتة للبحوث والدراسات ، يونيه ١٩٩٠م .
٢٨-تهذيب التهذيب ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، دار الفكر – بيروت – ١٤٠٤ – ١٩٨٤ ، ط١
٢٩- جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر الطبري ، مؤسسة الرسالة – ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ، ط١ ، تحقيق: أحمد محمد شاكر.
٣٠-الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (ت : ٦٧١ هـ) ، دار الشعب – القاهرة

٣١-جمهرة أنساب العرب ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت : ٤٥٦ هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م ، ط٣ .

٣٢-الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني ، علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي ، (ت : ٤٥٠ هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٤١٩ هـ –١٩٩٩ م ، ط١، تحقيق : الشيخ علي محمد معوض – الشيخ عادل أحمد عبد الموجود .

٣٣-خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، (ت : ١٠٩٣هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٨م، ط١، تحقيق : محمد نبيل طريفي/اميل بديع اليعقوب

٣٤-خصائص بناء الجملة التعليلية في شعر المعلقات ، بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة ، د.السيد أحمد أحمد موسى ، العدد الأربعون – الجزء الرابع – ٢٠٢١م .

٣٥-دراسات في الأدب الجاهلي – مباحث تراثية ونصوص دينية وتراجم – ، عادل جاسم البياتي ، مكتبة الأدب المغربي – ١٩٨٦م .

٣٦-دلائل الإعجاز في علم المعاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت ٤٧١هـ) ، ١/٥٧٥ ، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة ، ط٣ ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م ، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر .

٣٧-رسالة الغفران ، أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي ،المعروف بأبي العلاء ، (ت : ٤٤٩ هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ١٤٢٢ هـ –٢٠٠١ م ، تحقيق : علي حسن فاعور .

٣٨-الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، د/ محمد فتوح أحمد ، دار المعارف – القاهرة –١٩٨٤م ، ط٣ .

٣٩-ريب الحديث ، أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان، (ت :٣٣٨هـ) ، جامعة أم القرى – مكة المكرمة – ١٤٠٢ ،تحقيق : عبد الكريم إبراهيم العزباوي .

٤٠-زاد المسير في علم التفسير ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت : ٥٩٧ هـ) ، المكتب الإسلامي – بيروت – ١٤٠٤ ، ط٣ .

٤١-سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، (ت : ٩٤٢هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٤هـ ، ط١ ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض

٤٢-سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي)، محمد بن إسحاق بن يسار، (ت: ١٥١ هـ) ، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف، تحقيق : محمد حميد الله .

٤٣-السيرة النبوية لابن هشام ، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد ، (ت : ٢١٣ هـ) ، دار الجيل – بيروت – ١٤١١ ، ط ١، تحقيق : طه عبد الرءوف سعد

٤٤-شرح المقاصد ، لسعد الدين التفتازاني ، عالم الكتب – بيروت – ١٤١٩هـ-١٩٩٨م ، ط٢ ، تحقيق: د/ عبد الرحمن عميرة .

٤٥-صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، (ت : ٢٦١ هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

٤٦-الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري ، (ت : ٢٣٠هـ) ، دار صادر – بيروت.

٤٧-علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ، د/ صلاح فضل ، دار الشروق – ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م ، ط١ .

٤٨–غريب الحديث ، القاسم بن سلام الهراوي (ت :٢٢٤ هـ) ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ١٣٩٦هـ ، ط١ ، تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان .
٤٩–في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية ، د/ سعيد مصلوح ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، مصر ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م ، ط١ .
٥٠–قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، مكتبة النهضة – ١٩٦٧م ، ط ٣ .
٥١–كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت : ١٧٥هـ) ، دار ومكتبة الهلال ، تحقيق : د. مهدي المخزومي / د. إبراهيم السامرائي .
٥٢–كتاب سيبويه ، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت : ١٨٠ هـ) ، دار الجيل – بيروت ، ط١ ، تحقيق : عبد السلام هارون .
٥٣–كشف المشكل من حديث الصحيحين ، أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، (ت: ٥٩٧هـ) ، دار الوطن – الرياض – ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م ، تحقيق : علي حسين البواب
٥٤–لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، دار صادر – بيروت ، ط١.
٥٥–مجاز القرآن ، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى (ت : ٢٠٩هـ) ، (د. ت/ط) .
٥٦–المحبر، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية البغدادي (ت: ٢٤٥هـ) ، (د . ت) .
٥٧–المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، (ت : ٥٤٦هـ) ، دار الكتب العلمية – لبنان – ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م ، ط١ ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد .
٥٨–مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م ، طبعة جديدة ، تحقيق : محمود خاطر

٥٩-معجم البلدان ، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، (ت : ٦٢٦ هـ) ، دار الفكر- بيروت .
٦٠-معجم مقاييس اللغة ، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، (ت : ٣٩٥هـ) ، دار الجيل - بيروت - لبنان - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م،ط٢، تحقيق : عبد السلام محمد هارون .
٦١-معرفة الصحابة ، لأبي نعيم الأصبهاني ، (ت : ٤٣٠هـ) ، (د. ت /ط) .
٦٢-مفاتيح الغيب ، لفخر الدين الرازي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٢٠هـ ، ط٣ .
٦٣-مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان- ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ط ٢ ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه / نعيم زرزور .
٦٤-المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي ، ١٤١٣هـ -١٩٩٣م ، ط٢.
٦٥- مناقب الأسد الغالب ، ابن الجزري شمس الدين محمد بن محمد، (ت : ٨٣٣هـ) ، (د. ت /ط) .
٦٦-نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د/ صلاح فضل ، دار الشروق - القاهرة / مصر - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، ط١ .
٦٧-النكت والعيون (تفسير الماوردي) ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت: ٤٥٠هـ) ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ، تحقيق : السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم .